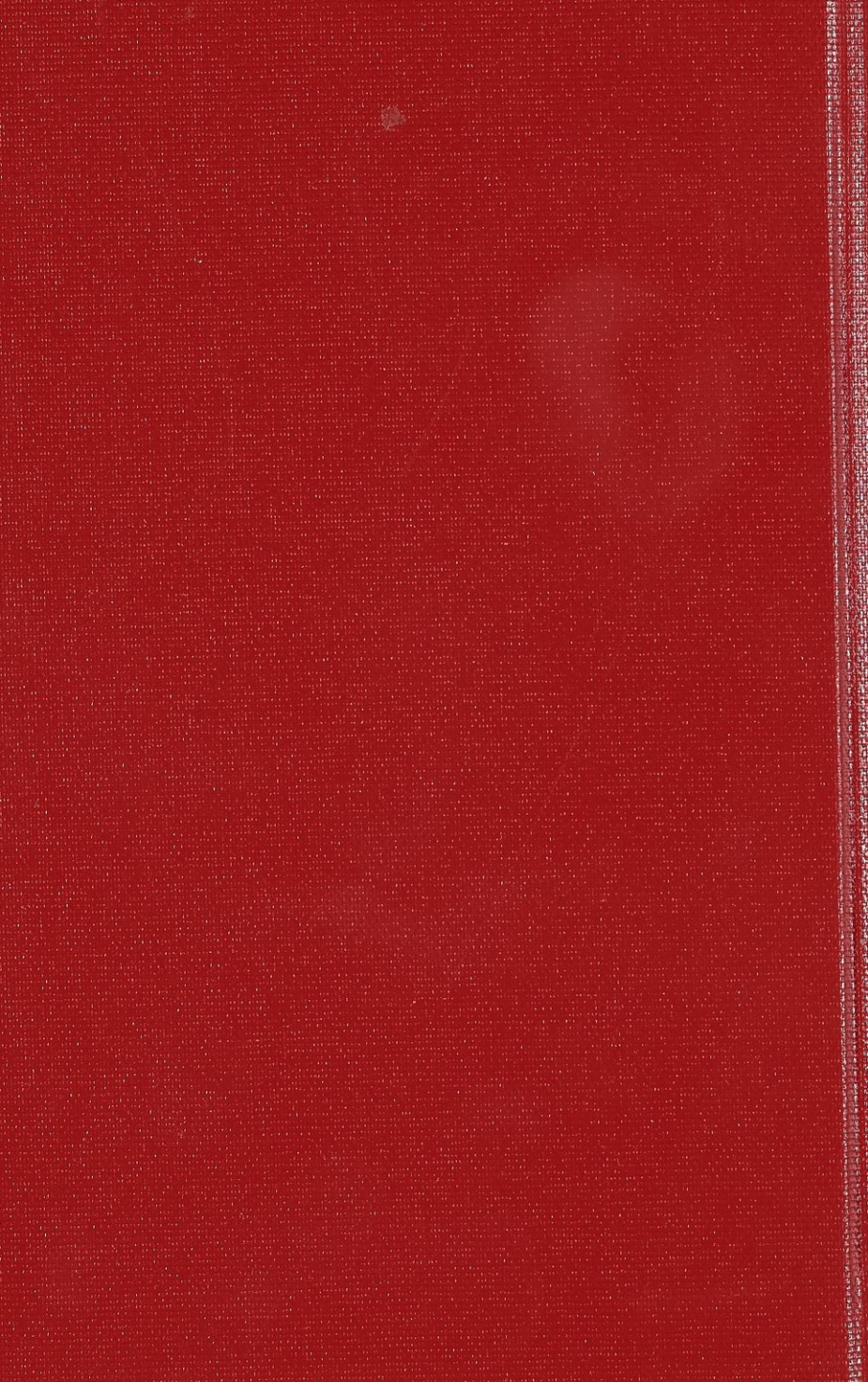




COLUMBIA UNIVERSITY
LIBRARIES

From the library of
Edward W. Said

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

الطبعة الرابعة

ملقّم الطبع والنشر
مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة الثموزجيه
٦ يكة الشايزى الجيهة البدين

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب بالجمامين تليفون ٤٢٧٧٧

الطائفة النوفلية

٦٠ بيعة الشاوي بالجمعة الجديعة

6TH

SAID

PJ

7828

.K52

U8

1951g

كتب المؤلف

نشرت في اللغة العربية

- | | |
|--|--------------------------------|
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
 الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)</p> | <p>محمد</p> |
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)
 الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)</p> | <p>شهر زاد</p> |
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
 الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)
 الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
 الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
 الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)</p> | <p>أهل الكهف</p> |
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
 الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)</p> | <p>عودة الروح
في جزئين</p> |
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
 الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
 الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)</p> | <p>تحت شمس الفكر</p> |
| <p>الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
 الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)</p> | <p>تاريخ حياة معدة</p> |

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

عهد الشيطان { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

پراكسا أو مشكاة الحكيم { (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)

راقصة المعبد { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)

نشيد الأنشاد { (مطبعة مصر عام ١٩٤٠)

حمار الحكيم { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

سلطان الظلام { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

من البرج العاجي { (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)

نحت المصباح الأخضر { (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

بجماليون { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع السكتب التي نشرت في اللغة العربية

- | | |
|--|-----------------------------|
| (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤) | { أهل الفن |
| المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة في القلب ، جنسنا اللطيف .
(مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧) | { مسرحيات |
| بالاشتراك مع الدكتور طه حسين باشا
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦) | { القصر المسحور |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص : الخروج من الجنة أو الملهم . امام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت .
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | { مسرحيات |
| الطبعة الأولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانية لحساب وزارة المعارف العمومية
(مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثالثة (طبعة مدرسية)
(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩) | { يوميات نائب
في الأرياف |
| الطبعة الأولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الرابع : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١) | { عصافور من
الشرق |

تابع السكتب التى نشرت فى اللغة العربية

صليمان الحكيم { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

زهرة العمر { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

رصاصه فى القلب : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

الرباط المقدس : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)

هارى قل لى : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)

شجرة الحكم : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)

الملك أوديب : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

قصص توفيق الحكيم : المجموعة الأولى والثانية
(مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)

مسرح المجتمع : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)

كتب للمؤلف

نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر
(نوفيل ايديسيون لاتين) وترجم الى الانجليزية
ونشرت مختارات منه في دار النشر (بيلوت) بلندن ،
ثم في دار النشر (كراون) بنيويورك . في عام ١٩٤٥

شهر زاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥ .
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل)
للنشر . وبالانجليزية ونشرت مختارات منه في
لندن عام ١٩٤٢

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى)
وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية)
وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الانجليزية في دار (هارفيل)
للنشر بلندن عام ١٩٤٧
وترجم إلى الاسبانية في مدريد عام ١٩٤٨

يوميات نائب
في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت مديردار الآثار العربية
ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٠

أهل الكهف

تابع المكتب التي نشرت في اللغة أجنبية

عصفور من الشرق { ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

بجماليون	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	» » » » » » » »
سليمان الحكيم	:	» » » » » » » »
نهر الجنون	:	» » » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » » »
المخرج	:	» » » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » » »

(في مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر

» نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »)

إلى

حاميتي الطاهرة

السيدة زينب

الفصل الأول

مطر غزير قد ألجأ الناس إلى مظلات المشارب
والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو.
ولم يبق في ميدان « الكوميدي فرانسيز » غير مياه تتدفق من
الميازيب ، وسيارات تخوض في شبه عباب . آدمى واحد
ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير الهوينا غير حافل بشيء ، عيناه
الواسعتان تتأملان نافورة الميدان وهي زاخرة بالماء ، وفيه
ذو الشفاه العريضة يلوك شيئاً كالبلح ويلفظ شيئاً كالنواة ،
ويده اليمنى كالرسول الأمين من جيبيه إلى فمه تواتيه بالمدد في غير
انقطاع . هذا الآدمي قتي نحيل الجسم أسود الشياب ، على رأسه
قبعة سوداء عريضة الأطار في قمها فجوة غائرة كطباق الحساء
قد امتلأت بماء المطر .

وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها إلى جانب
آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه » وهو

يستوحى عروس الشعر . فوقف الفتي ينظر إليه وقد نقش
على قاعدته « لاشيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم » ثم تطلع إلى
وجه الشاعر فألقى قطرات المطر تتساقط من عينيه كالعبرات.
فتحرك قلبه ، وسدكت فمه ... ثم همس مردداً كالخاطب لنفسه :

— لاشيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! نعم ...

ومرت في رأس الفتي صور من ماض بعيد ... ثم همس :

— حتى هنا أيضاً يعرفون هذا ! ..

وغرق في التفكير . وغرقت قبعته في الماء ، حتى فاض

فسال على وجهه . وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :

— أراهن بمائة فرنك أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا

التمثال إلا أنت !

فاستدار الفتي سريعاً :

— أندريه !

— قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر . ليس

هذا وقت النظر إلى التماثيل !

— بل هذا وقته، تأمل يا أندريه! هذه الدموع في عيني الشاعر!

— لو لم يكن هذا الشاعر من رخام لولى الساعة هارباً هو وعروسه إلى أقرب قهوة، وتركاك وحدك وسط هذه المياه...

ولم ينتظر الفرنسي جواباً من صاحبه، بل جذب به إلى مظلة قهوة «أريجانس» القريبة، ثم نظر في وجهه فوجد فيه يتحرك:

— عجباً! ماذا في فك؟

فلم يجب الفتى. ولفظ من فمه نواة وقعت في الماء الجارى إلى «البلايغ» فصاح به أندريه:

— تأكل بلحاً!

— نعم، وفي شوارع باريس!

— آه أيها العصفور القادم من الشرق!

— في مصر نسميه «عجوة»، هذا النوع من البلح.

إنى أتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب!

وأَتخيل هذه النافورة... ذلك «السييل» بنوافذه ذات

القضبان النحاسية..

— كفى تخيلاً . تعال . . لقد سكن المطر . .

— إلى أين . .

فلم يجب أندريه . . وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى ويتأمله
من قبعته السوداء ومعطفه الأسود ورباط عنقه الأسود إلى
حذائه الأسود ثم قال :

— عظيم جداً .

— ما هو العظيم جداً ؟ !

— إنك الآن خير من يصلح للذهاب . .

— إلى فانتى الجميلة . .

— بل إلى المدافن . . . هلم معى لتشيع جنازة زوج

بنت مدام شارل ! إن عليك « طقم » حداد كامل . لكانى

بك دائماً على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات ! إنه ليسرنى أن

أصبح مثلك إلى هذه النزهة القصيرة !

— النزهة !

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزراً ، ولكن صاحبه

تجاهل النظرة وجذبه من يده :

— تعال تؤدى معاً هذا الواجب ...

— نحو من ؟ ..

— نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل ؟

— ومن هى أولا مدام شارل ؟

— هى والدة أحد زملائى فى المصنع .

— وما ذنبى أنا ؟

— ذنبك أنك صديق ! فلتتحمل ما أتحمّل . لاشئ .

يثقل على نفسى مثل المشى صامتاً خلف عربات الموتى !

سنتحدث على الأقل سوياً فى شئوتنا . . بل فى شئونك أنت ،

إنى أعدك وعداً صادقاً بالحديث طول الوقت عن فانتتك

ذات الأنف الذى تقول إنه غير فى نظرك المثل الأعلى

للأنف الجميل ، وقلب فى رأسك كل الصور والأوضاع التى

كنت قد تخيلتها للجمال !

— نعم ، نعم . لقد كنت أعتبر الجمال ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمساً .. ولم يفتن إلى أندريه
وقد قاده من ذراعه ونزل به إلى إحدى محطات المترو ،
وابتاع له تذكرة في الدرجة الثانية ، وأركبه قطاراً مرق بهما
في جوف الأرض مروق لسان محسن بذلك الحديث اللذيذ .
وابتسم أندريه آخر الأمر في خبث ابتسامته من يقول في
نفسه : « إن معي الآن مفتاح قياده فلألوحن له « بها » يتبعني
صاغراً بغير أن يشعر إلى أقاصى الأرض ! .. »



دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالاً باستقبال
الجثمان . ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد . ولم يكن بباب
الكنيسة أحد غير « محسن » . فقد تركه « أندريه » عند الباب
وذهب يشتري مظلة ، يتقيان بها المطر أثناء السير في الطريق
من الكنيسة إلى المقبرة . وأبطأ أندريه على صديقه . وبدأت
طلائع الجنازة . واشتد دق النواقيس . ثم فتح باب الكنيسة
على مصراعيه واقتربت عربة الموتى تهادى حاملة التابوت

ثاويًا تحت باقات الزهر . وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم .
ووقفت العربية . وحمل التابوت إلى داخل الكنيسة . ومرت
أفواج المشيعين بمحسن في ملابسه السوداء الكاملة فانحنوا
له حاسبين أنه من أهل الميت الأقربين . هنا أدرك الفتى حرج
موقفه . فأسرع واندس في فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه
أعين أهل الميت الحقيقيين والناس تدخني له . فيظنون بشأنه
الظنون .

دخل محسن الكنيسة . ولم يكن قد دخل كنيسة قط .
ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى . ولا رأى
ما يجري فيها من المراسيم ولا ما يتبع من الطقوس . فأحس
برهبة . وخيل إليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الأرض
وارتقى إلى جو آخر ، له عبيره وله نوره . هنا أيضاً عين
الحشوع وعين الشعور الذى كان يهز نفسه كلما دخل في
القاهرة مسجد السيدة زينب . هنا أيضاً عين السكون ، وعين
الظلام في الأركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح في
(٢)

جوامع المكان ! إن بيت الله هو بيت الله في كل مكان وكل زمان .
وضع التابوت في الصدر وأضيئت حوله الشموع .
وأخذت أصوات الرهبان تعلو مرتلة الصلاة على أنعام
الأرغن . ثم تقدم الناس في صف طويل نحو التابوت يمرون
به ، الواحد تلو الآخر ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى .
ومشى محسن في الصف ذاهلاً خائفاً أن يحدث صوتاً على
أرض الكنيسة ، وانتبه قليلاً فرأى القمقم في أيدي من
أمامه في الصف يرسم به الواحد علامة الصليب وهو ينضح
به الميت ، ثم يسلمه في صمت إلى من خلفه ، وراقب الفتى
هذا الفعل يتكرر أكثر من خمسين مرة وهو يحسب الف
حساب لنوبته وأذهلته الرهبة فما راعه إلا القمقم يسلم إليه
من أمامه فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت راسماً
في الهواء علامة لا يدرى من فرط اضطرابه أدلت على صليب
أم على هلال . ثم نضح التابوت على نحو خشى معه أن يكون
قد أكثر فبلل الغطاء . ولكنه فرغ من مهمته على أي حال .

فتنفس الصعداء ومد يده بالقمقم يسلمه إلى من يليه . فلم يجد خلفه أحداً . كان هو الاخير في الصف يا للكارثة ! ما العمل ! و حار وارتبك بهذا القمقم في يده لا يدري ما يصنع به وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج وتصيب العرق بارداً من جبينه . إنه يحمل في يده شيئاً مقدساً . كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه في شيء مملوك لله داخل بيت الله ! إنها لمسؤولية عظيمة ! ولحقه أحد القسيسين في هذا الموقف فبادر إليه وحمل عنه العبء . فانصرف الفتى وكأنه يقول في سذاجة : « ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات في إدارة ممتلكات السماء ؟ » . وأسرع محسن إلى اللحاق بالصف كي يعزى أهل الميت فما كاد يتقدم إليهم في ملابسه السوداء حتى حملقوا فيه كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم الذي أتى يشاركهم مصابهم في ثياب حداد كاملة لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولا ذويه ! وأعيانهم التذكر

وفهم محسن مايجول بخاطرهم فلفظ سريعاً بضع كلمات غير
مفهومة وانطلق إلى الخارج . . . فوجد أندريه واقفاً تحت
مظلة جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت .
ورأى الفرنسى صديقه فابتدره محملاً في وجهه :

— مالك أصفر الوجه !

فلم يجب محسن بغير قوله :

— اذهب وادفن زميلك . أما أنا فانى أنتظر ك فى قهوة

« الدوم » .

واختفى سريعاً قبل أن يترك لاندرىه وقتاً للكلام . . .



جلس محسن وصاحبه أندريه فى قهوة « الدوم » بحى
مونبارناس ، وهى ملتقى أهل الفن من مصورين ومثالين
وشعراء . وهى من أجل ذلك ذات شهرة وصيت . وهبط
فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسى فهبط باريس سائحون
كثيرون أغلبهم من الأمريكان انتشروا كالذباب فى كل مكان . . .

وطلب محسن قدحاً من عصير البرتقال ، جعل يرشف منه في ببطء من خلال ذلك العود المجوف من القش ، وطلب أندريه كأساً من « الپرنو » أخذ منه جرعة ثم التفت إلى صديقه قائلاً :

— أتدرى أين دفنوا زوج بنت مدام شارل ؟

— لا أريد أن أعرف أين دفنوه .

— لماذا ؟

فضاق محسن ذرعاً :

— وبعده ؟ أخبرنى بحق ربك ، متى تعتقنى من هذا

المدعو زوج بنت مدام شارل ؟ ! أما كفالك أنى صليت على

روحه فى الكنيسة ، ونضحته من القمقم المقدس ! .. آه ! إنى لن

أغتفر لك هذا التهاون منك ! إنك كنت تعرف أنى داخل

هذا الحرم المقدس ولا تقول لى حتى أعد نفسى ...

فابتسم أندريه وقال :

— أيها العصفور الشرقى ! تعد نفسك لدخول الكنيسة !

ما معنى هذا؟ ... إننا ندخلها كما ندخل القهوة. أى فرق؟؟
هناك محل عام وهنا محل عام. هناك الأرغن، وهنا
الأوركستر...

فلم يلتفت إليه محسن وهمس كالمخاطب لنفسه:
— بل هناك السماء! وليس من السهل على النفس الصعود
في كل لحظة... إنه لمجهود...

فلم يبد على الفرنسى أنه فهم عن محسن. ولم يكلف نفسه
عناء سؤاله، ورفع كأسه وجرع جرعة أخرى. ثم أشار
بطرف عينه إلى أمريكية حسناء جالسة مع أشرطةها على مقربة
منهما، وهى لا تفتر عن النظر إلى من حولها من فنانيين،
ووقعت عينها آخر الأمر على محسن فى ثيابه السوداء، فغمزت
من معها وهمست إليهم بكلام.

ولحظ محسن نظراتها فقال لأندرية فى صوت منخفض:

— لماذا يرمقوننى هكذا؟

— يحسبونك من أهل الفن بهذه القبعة وهذه الملابس.

— إنهم ينظرون إلى كما ينظر الانسان إلى طائر غريب!
أولم يروا فناً قط؟ يخيل إلى يا أندريه أن هؤلاء الأمريكان
قوم خلقوا من الأسمنت المسلح لاروح فيهم ، ولا ذوق ،
ولا ماض . إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت في موضع
القلب « دولار » . إنهم ليأتون إلى هذا العالم القديم حاسبين
أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقاً ، ولبلادهم
ماضياً ! .

ولم يظهر على أندريه أنه أصغى إلى كلام صديقه كله .
فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية :

— أهذه بربك من الأسمنت المسلح !
— لا تطل إليها النظر هكذا . وإلا قلت لزوجتك
« جرمين » !

فهز الفرنسي كتفيه ومضى في إظهار إعجابه :
— تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما في لون زرقتهما
بحيرتان من بحيرات الجنة !

— كلا . بحيرات الجنة فى لون الفيروز !

— أيتها المفتون ! إنك لا ترى غير عيني فانتك التى

لا تعرف اسمها !!

فنظر محسن إلى الفضاء باسماء ساجا بخياله ثم قال :

— أعرف صوتها . وهذا ليس بالقليل . . . ليلة الأمس

فى الأوبرا ..

— كنت فى الأوبرا ؟

— اطمئن . أعلا التياترو . وسمعت صوتها . أغنى

صوتا كصوتها . كل صوت جميل هو صوتها . سمعته يغنى :

« قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار »

« لقبلات الصباح ! »

الفصل الثاني

جلس محسن كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ في المنزل الذي يقطنه ، أما شر البرد القارس في الطريق ، مستعدباً نقر المطر على زجاج النافذة كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة وقد وضع على رأسه قلنسوة مصرية من «الكستور» وفتح أمامه كتاب الجمهورية للفيلاسوف أفلاطون وأمسك سكيناً جعل يقشر بها بصلاً . وبين آن وآن يلتفت إلى طفل في الرابعة يلعب في أحد الأركان متقلداً سيفاً زائفاً مما يلعب به الأطفال ، ومصوباً مدفعاً صغيراً من الصفيح نحو أعداء وهميين من الألمان . وكان الطفل يثرثر ويصيح موجهاً الكلام تارة إلى أعدائه وتارة إلى جدته العجوز الواقفة أمام النار تهيم مرقاً من لحم البقر وهي لاهية عنه وعما يقول . وأخيراً التفتت إليه وسألته :

— ألسـت جوعان يا جانو ؟

— كلا . إني أحارب « البوش » .

فقالت جدته في تحمس :

— نعم . قاتل « البوش » يا جانو ! ولا تبق منهم أحداً

على وجه الأرض !

فرفع محسن رأسه مستغرباً هذه الكلمة :

— « البوش » ؟ من هم « البوش » ؟

فابتسمت العجوز وقالت :

— هم الألمان . نحن عامة الفرنسيين نطلق عليهم هذا الاسم .

وصاح جانو :

— نعم هم الألمان . جدتي ؟ لماذا هم يسمون بالبوش ؟

فتفكرت المرأة قليلاً ولم يسعفها عليها المحدود :

— لست أدري .

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة إلى محسن

مبتسمة لانهماكه في عمله :

— «برافو» يامسيو محسن! إنك لبارع حقاً في تقشير البصل!

فقال محسن دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تليح :

— براعتك ياسيدتي في الغناء والعزف على البيانو!

فابتسمت ولم تدرك مراده :

— يالك من قتي متملق!

وأخفى محسن في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذي هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن تدخل على نفسه السرور وتملأ المنزل بهجة ومرحاً ، فأرسلت في طلب «جرمين» زوجة ابنها وأجلستها إلى البيانو وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له محسن أصلاً من الأصول ، وإذا الغناء ينتهي بصيحة ظنها محسن داخلته في تركيب النغم . ولكنها كانت صيحة شجار دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها ، واستفحل أمر الخلاف بينهما إلى حد أزعج الفتى . فما راعه إلا غطاء البيانو يغلق في عنف . وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها فتضعها عليها وضعاً في غضب وتذهب نحو الباب تريد

الانصراف ، وانقلب المنزل في لحظة شر منقلب ، وامتلأ بالمرح
والبهجة والسلام ، ولكن بالكدر والكرب . وما من سبب
ظاهر استطاع محسن أن يستخلصه لـكل هذا . منذ ذلك اليوم
ومحسن يحسب حسابا لعزف العجوز وغنائها . وإذا عزفت
مرة أو غنت رفع عينيه إلى السماء وسأل المولى -حسين الختام .
التفتت العجوز مرة أخرى إلى محسن وإلى البصل
ثم قالت باسمه :

— لا بأس ! لك عندى ثمن عملك هذا يامسيو محسن .
أتدرى ماهو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على البيانو ؟
فلم يملك محسن نفسه :
— أتسمين هذا ثمنا ؟ !
ثم استدرك وقال سريعا :
— أية أغنية ؟ ينبغي أن تتفق على الأغنية أولا
فقالت المرأة :

— الأغنية التى تحبها ، تلك التى قلت لى انك سمعتها فى
دار الأوبرا .

فاهتز محسن في كرسيه وأنشد على الفور مطلع أغنية
« سان سانس » :

قلبي يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح !
فنظرت إليه المرأة في عجب :

— ما أشد حبك للموسيقى !

— إنها في دمي

قالها محسن في بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفي لهجة
تشير عن غير قصد إلى ماضيه بأكمله ! ثم تناول السكين
واستأنف تقشير البصل ، وهو يصغي في أعماق نفسه إلى
أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها « نينون فالان » الشهيرة في
أوبرا باريس منذ شهرين . ليلة جميلة عجيبة لا ينساها محسن ،
فقد رأى فيها ما لم ير من قبل وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد
في تلك الليلة أن يتشبه لأول مرة بالموسرين فاستأجر مقعداً
في صفهم وهو لا يعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة
الرسمية ، ونهته العجوز ، فحار في شأنه إذ ليس لديه هذا

اللباس ، ورأى آخر الأمر أن يلجأ إلى الحيلة ، فاشترى صدر قميص أبيض منشى ربطه على صدره رباطاً وثيقاً بخيوط (الدوبارة) ثم أتى بأحكام منشة ربطها كذلك حول معصميه ، وارتنى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول : « لو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لو جدوا فيك عجباً : إنساناً مربوطاً بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! » وحين الوقت ودخل محسن الأوبرا فما تمالك أن وقف مشدوهاً : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار ! وأى أنوار !

وأدرك من فوره معنى مجسمها لكلمة (الحضارة الغربية الكبرى) التي بسطت جناحيها على العالم !

نعم ، ما كل هذا البذخ والإغراق في الترف إلى حد الكفر والفجر والاستهتار ، لكننا جاء القوم وأغلبهم من سرة الأمريكان إلى هذا المكان يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع

في حضرة الفن ، أو لذة العودة إلى الإنسانية والروح على يد
الموسيقى ! وصعد محسن سلم الأوبرا المشهور وهو يتصبب
خجلا بين الصاعدين من أصحاب (الفراك) الثمين ، والقبعة
العالية ، والقميص المنشى (الحقيقى) ! والسيدات الأنيقات
في أثواب الليل البراقة ، والحلى المتألقة ، كأنهن الشموس في
عالم الماس ، وخيل إلى محسن أنه قد دخل بين هؤلاء القوم
بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حملة وقد
مرت عليه السنون وهو يحمل الجاه والمال في العالم قاطبة ،
ولعله المكان الوحيد الذى لاشك قد وطأته أقدام جميع
الملوك ، فليس يبعد أن يغضب السلم في هذه اللحظة ويزلزل
بمحسن صائحا : « لم يبق على آخر الزمان إلا أن يطأنى بنعله
القديم مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق ! » وتصور
محسن أن خيوطة قد تحل لسبب من الأسباب فيسقط الصدر
المنشى على الرخام وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة !
كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة . وعلم أن ثمرات الفن

إنما هي أيضاً حق ووقف على طبقة الأغنياء . وأن الطريق
إلى الاستمتاع الروحي ينبغي أيضاً أن يفرش بالذهب ،
وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التي تخيلها الشعراء والفلاسفة
في كل زمان : جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها
لا تعرف الذهب . وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع .
والكل فيها مثل فرد واحد . الكل فيها يعمل . والكل يأكل
والكل يقرأ وينعم . والكل يلعب ويمرح . أما الذهب فانهم
يصنعون منه مصاييح الطرقات وحوافر الجياد . يا للسماء !
أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوماً على هذه
الأرض ؟ ! .

وتنبه محسن قليلاً وترك تأملاته ورفع رأسه فألقى
السكون قد هبط على هذا المنزل الريفي الصغير ، ولم يسمع إلا
صوت لغط الدجاج في الحديقة وصياح الديكة وهرج الأوز .
ثم ثرثرة جانو مخاطباً لعبه بين آن وآن . وكأنما سمَّ جانو اللعب
آخر الأمر ، فهض ودنا من المرأة صائحاً في لهجته الصيدانية :

— جدتي ! الدجاجة الحمراء تبيض اليوم .

فأجابت جدته في تقطيب :

— جانو ! إني لا آذن لك في الذهاب إلى الدجاج بمفردك

— سأذهب مع مسيو محسن .

— لن تذهب اليوم . إن المطر ينهمر في الخارج

والبرد شديد .

— وماذا أصنع الآن ؟

— « حارب » البوش .

— حاربتهم .

— قص على مسيو محسن كيف أراد الألمان أن يدمروا

باريس ! ألا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟

— كلا . إني أريد أن أعود إلى منزلنا .

— منزلكم خاوا الآن وليس به أحد . أنت تعلم أن أباك

وأهلك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب . دمدم الطفل

وتبرم في صوت كالبكاء . ثم مشى في بطاء إلى حيث يجلس

محسن وجعل ينظر إليه ثم مد يده الصغيرة إلى الكتاب المفتوح فوق المائدة وطفق يقلب صفحاته باحثاً عن صورة فيه . ولم يتحرك محسن . فقد كان عقله مشغولاً ، ونظراته جامدة لا تتجه إلى شيء بعينه . إنما كان يتساءل في أعماق نفسه : أليس في كل فرنسا أمهات يلقين أطفالهن كراهية الألمان ؛ ومن يدرى لعل كل نساء ألمانيا يعلنن أطفالهن كذلك بغض الفرنسيين ؛ ولتكن الأسباب ما تكون ؛ بأي حق تستطيع أم أن تنشئ ولداً على العداوة والبغضاء ؟

وانتشرت في المكان رائحة شواء شهى ، فرفع محسن بصره فألقى المرأة تخرج من الفرن فخبذاً من لحم البقر أخذت تدهنه بالزبد وهي تقول :

— سيحضرون هذا المساء في الساعة السابعة للعشاء .

فقاطعها جانو صائحاً في فرح :

— وهل جيزيل ستحضر أيضاً يا جدتي ؟

فابتسمت المرأة والتفتت إلى محسن غامزة بعينها :

— بالطبع ستحضر جيزيل مع والديها .

قهل وجه الطفل ، وطفق يثرثر كالبيغاء ، وابتسم محسن متذكراً أيام الطفولة الأولى !

دقت الساعة الواحدة في مصانع « كوريفوا » القرية ، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهيء مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح في الباب الخارجى ، ثم بدا فى الدار شيخ ما كاد جانو يسمع صوت نعله وسعاله حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح : « جدى حضر ! جدى حضر ! » ودخل الرجل المطبخ ونشر مظلة فى يده بللها ماء المطر ، ومد يديه إلى النار وهو يحادث زوجته فى شؤون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف . وأصغت إليه المرأة حتى فرغ من حديثه فقالت له فى صوت اليأس :

— صفوة القول ، ليس لنا أن نأمل فى عمل بأحد

المصانع ؛ أليس الأمر كذلك ؟

— الوقت عسير يا عزيزتى والمصانع لا تريد أن تمنح
 أمثالنا القوت ، لأن لديها حاجتها من العمال . من أولئك
 العمال المساكين تسخرهم طول اليوم من أجل لقمة كالعبيد !
 -- وماذا نصنع نحن إذن ؟ ينبغي أن تذكر أن ولدك
 أندريه ومارسيل لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا بالمال . فلقد
 اعتزم أندريه إلحاق جانو بمدرسة داخلية ، وفي هذا باب
 جديد للنفقات سيتكلفه المسكين . كذلك مارسيل يتكلف
 الباهظ من المال منذ عام فى الانفاق على مدرسة جيزيل !
 فأطرق الرجل ملياً ثم قال :

— صدقت . ليس لنا إذن من مورد إلا ..

والتفت يمينه ويسرة باحثاً عن محسن بعينين خابيتين
 تحت المنظار . وأدركت المرأة مراده والتفتت إلى مكان
 محسن من مائدة المطبخ فوجدته خالياً فقالت :

— « عصفور الشرق » صعد إلى حجرته من غير شك

كى يضع كتابه ويتهياً للغداء . نعم ليس لنا من مورد

إلا ما يدفعه هذا الشاب .

صمت الرجل لحظة متفكراً ثم قال :

— أترى تطول إقامته بيننا ؟

— من يدري ؛ لقد قال لى ذات يوم إنه سيمكث عامين

أو ثلاثة . آمل أن لا يسأم حياة الريف ويفر إلى باريس .

فظهر القلق على وجه الشيخ . ثم نظر مفكراً إلى النار

المتأججة فى الوجود وقال كمن يدخل على نفسه الاطمئنان :

— كلا . انه فيما يبدو لى شاب لا يميل إلى اللهو كسائر الشبان

— حقيقة . انه لا يحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى .

لكن من يدري ان كان يلبث فينا كل مدته ؟ ليس لنا إلا ان نأمل .

هز الرجل رأسه واطرق صامتاً ، ثم دس يده فى جيبه

وأخرج لفافة تبغ . وجاء « جانو » يجرى وقفز إلى ساق جده

فامتطأها كما يمتطى الحصان وطفق يحدثه بمجىء جيزيل المنتظر ...

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء ، وانصرفت المرأة إلى الأواني والأطباق تغسلها في المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقربة منها يدخن ويطلع جريدة « الأومانيته » - الإنسانية - المنتشرة في طبقة العمال وأهل الفاقة . وخلا جانو إلى لعبه ومدافعه وحربه . الضروس وأغلق محسن حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب . ولم يعديقرأ أو يبصر شيئاً ، فقد ترك الحجره ، وغادر الأرض ، وضل في بحار التأملات ...

وأقبل المساء أخيراً ، ورن جرس باب الحديقة فترك جانو لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح في فرح : « ماما حضرت ! بابا حضر ! » وظهرت امرأة في مقتبل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها جانو وهي تدفعه عنها في رفق ،

وخلفها زوجها أندريه ، وعليهما هما الاثنان مظاهر التعب والقوى المنهكة ، ومسحت العجوز يديها في «فوطه» المطبخ التي ترتديها ، وأقبلت على زوج ابنها تعانقها وتتأمل وجهها وتقول في حسرة متصنعة :

— إنك متعبة منهكة القوى يا جرمين !

فأجابت الزوجة وهي تنظر إلى زوجها الشاب :

— إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة .

واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه وتصيح في حرارة

حقيقية :

— وأنت أيضاً يا أندريه ! ما كل هذا الشحوب

— إننا يا أماه نعمل ثمانى ساعات في النهار !

قالها أندريه وهو ينظر الى أبيه . وكان أبوه قد طرح

الصحيفة من يده واتجه الى جرمين وجانو يياسطهما ، فلما

سمع قول أندريه صاح في حدة :

— يالها من وحشية ! إن هذا لم يعد يسمى عملاً . إنما هو

الاسترقاق . الرق لم يذهب من الوجود . لقد اتخذ شكلاً آخر
يناسب القرن العشرين . هاهى ذى جيوش من العبيد يسخرها
أفراد معدودون من السادة الرأسماليين !

ورفع جانو بصره إلى جده ولم يدرك سبباً لحدثه
وحانت من أندريه التفاتة إلى الصحيفة الملقاة على
الأرض فابتسم وقال :

— أهذا ما قرأته اليوم فى « الأومانيتيه » يا أبتاه ؟

فأجاب الرجل فى جد وحدة :

— نعم ، أوليس هذا هو الحق .

— من غير شك ، هذا هو الحق ، لكن ماذا نصنع

نحن الفقراء ؟

— ينبغى أن تنقص ساعات العمل على الأقل ، حتى

تستردوا بعض حريتكم وبعض وقتكم وحتى تنقذوا مابقى لكم

من صحتكم ، وحتى نجد لنا نحن العاطلين عملاً وكسباً نسد

به الرمق .

— إنك تجهد نفسك في الكلام يا أبتاه . لقد قلت الحقيقة :

نحن عبيد القرن العشرين . ومتى كان للعبيد حق الاعتراض
أو حق الاقتراح ؟

وأراد الشيخ أن يجيب ولكن جانو تمليل ونظر إلى
والديه وإلى جدته وصاح :

— لماذا أبطأت جيزيل ؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحاً في السؤال فضربت
الأم على يده الصغيرة في لطف ، وخلصت ثيابها منه ، وأرادت
جدته أن تقصيه فقالت له :

— إذهب وحيء بمسيو محسن ، فقد أزف ميعاد العشاء

وتنبه أندريه فسأل على الفور :

— أين عصفور الشرق ؟ لقد فاتني أن أسأل عنه ساعة

دخولي ؟

— في حجرتي .

فاتجه اندريه نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

— لست ارى نوراً فى حجرته .

فأجابت الأم العجوز وهى تقطع رغيفاً طويلاً من الخبز :

— إنه فى حجرته ، جالس إلى مكتبه ، وطالما يفاجئه

المساء وهو امام كتابه بلا حراك ، وكثيراً ما ادخل حجرته

فأجد الظلام مخيماً عليه وهو جالس جامد كالتمثال فأدير له
مفتاح الكهرباء !

— إنه غريب الأطوار ! إنى اعرفه حق المعرفة !

وعندئذ دق جرس الباب الحديدى ، فمرق جانو من

بين الجميع إلى الباب وهو يصيح كالعصفور الصغير :

— جيزيل

* * *

اجتمع الكل حول المائدة وكانوا قد انتهوا من العشاء

منذ قليل ، ولبشوا فى مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية ،

وقد فشا أمرها فى باريس ، وأمست بدعة من البدع يتبعها

الناس مقلدين . وان الحياة امست عسيرة وان سعر الفرنك

هوى الى الحضيض ، وان فرنسا الآن فريسة اصحاب المال

الأمريكيين ، وأن هؤلاء الأمريكان قد بلغ من عتوهم واعتدادهم بثرائهم ان الواحد منهم لا يوقد سيكاره إلا بورقة مالية مشتعلة تحت أنظار الشعب الفرنسي الفقير! هنالك صاح زوجها الشيخ في غيظ :

— يالهم من أذال !

ثم استطردت العجوز فجأة ، وكأنها استكشفت شيئاً :

— لاريب أنهم هم السبب في غلاء أسـعار الخضر

واللحم والفاكهة ؟

وألقت نظرة استنفهام على الحاضرين فاذا هي ترى جانو

وابنة عمه جيزيل قد جلسا متلاصقين يأكلان « الجاتو » ولا

يكفان عن الكلام .

ونفذ نصيب جانو فجعل ينظر إلى جيزيل التي تكبره

بعامين وهي تأكل في تودة وكياسة ، وفطنت الطفلة إلى فمه

العاطل وإلى نظراته الطامعة فما ترددت، وتقدمت إلى صديقها

بكل مابقى لها . ولم يأب عليها جانو، وقبل منها هديتها وطفق

يلتهم ما أعطته وهو ينظر إليها بعينين باسنتين كليهما اعتراف
بالجميل، لكنه لم يقل شيئاً. هنالك تجمعت له جدته وصاحته به :
-- جانو ! ألا تقول لها شيئاً ؟

فالتفت الطفل إلى جدته في سداجة :

— أقول ماذا ؟

— تقول ماذا ؟ تقول ما يقول الناس عندما يتقبلون

شيئاً من الغير .

— ماذا يقول الناس ؟

— يقولون : « شكراً » ، ولقد علمت ذلك ألف مرة .

ثم التفتت إلى والدي الطفل في قنوط :

— لم يبق لي جلد على تهذيب هذا الغلام . وإني أصار حكماً

القول . هذا ليس من عملي ، إنما هو من عمل الأبوين . ومادمتما

تتركان لي ابنكما طول النهار وتنصرفان إلى المصنع ؛ فلا أمل

في أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم .

فأجاب أندريه في غير اكتراث :

— وهل تظنين يا أماء أن هذا من عملنا نحن ؟ هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ؛ أما نحن فليدنا عمل آخر كما تعلمين .

— نعم . المصنع !

فقال الشيخ في تهكم :

— بالطبع . المصنع !!

فهزت جرمين كتفها . فقالت العجوز في حدة :

— لا تهزى كتفيك يا جرمين ! إياك أن تنسى لحظة

أهمية تأثير البيت . في زماننا كان البيت هو كل شيء . آه . لقد ذهب كل شيء طيب بذهاب زماننا !

فقال أندرية وأخوه مارسيل في وقت واحد :

— أين هو البيت اليوم يا أماء ؟

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ثم أجابت !

— صدقتما لم يعد هنالك بيت وا اسفاه ، ولم تعد هنالك

أسرة . الرجل والمرأة في المصنع طول النهار ! ياله من زمن عجيب !

فقال الشيخ في قوة واقتناع :

— قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !

وانتبه محسن لهذه العبارة ، فلمعت عيناه بريق غريب .

ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين في الصعود إلى حجرته ،

فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس إلى مكتبه في الظلام ،

وهو يهمس :

— نعم . لن يذهب الرق من الوجود . لكل عصر

رقه وعبيده !

الفضيل الرابع

لم يمكث محسن طويلا غارقاً في تأملاته، فقد ضرب عليه الباب ، فانتبه ، وإذا صديقه أندريه وزوجته جرمين يصيحان به :

— عصفور الشرق وحيد في القفص !

فقال محسن كالمخاطب نفسه :

— إني دائماً في قفص .

فقال أندريه في ابتسامة خبيث :

— في قفص الحب سجين أيها المسكين !

— نعم سجين .

فقال جرمين باسمه :

— أتعترف بهذه السهولة ؟

— وما فائدة الإنكار ؟

— ولماذا لا تنطلق حراً مغرداً في فضاء الحب ؟ ؟

فأسرع أندريه قائلاً :

— إنك تطلبين المستحيل . إنه سيظل دائماً هكذا ، إنه

حتى الآن لم ينجح حتى في الوصول إلى معرفة اسمها

فقالت جرمين في ضحكة خفيفة :

— لم يعرف بعد اسمها ! حقاً إنه لمح خائب !

فاتخذ وجه محسن لون الجد الصارم . وقال في هدوء

وموافقة واقتناع :

— أما إنى محب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل للجدل

فيه ، وقد أعتنى هذه الحنية في كل زمان ومكان !

فقال أندريه سائلاً :

— ألم ترها اليوم ؟

— لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف إلى غير مطالعاتي .

إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة لكن هل الرأس

هو كل شيء في حياة إنسان ؟ آه ! .. إن أجمل لحظاتي ساعة

أقف أمامها أنتظر ، وانا أعلم انها لن تلتقى إلى بكلمة تسر
خاطري . مرة واحدة نبذت إلى عفواً بنظرة وقالت لى .
« أما تزال واقفاً هاهنا ؟ اى مخلوق انت ؟ » .

— وما قصدها من هذا ؟

— لست أدرى ؟ فسر هذه الجملة كما تشاء . أما أنا فقد
فسرتها طبعاً لمصلحتى . إني أحب هذه العبارات المبهمة التى
أتخيل معناها كما أشاء

— انك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك .

قالها أندريه وهو ينظر الى جرمين . فأمنت على قوله
برأسها وأضافت :

— من غير شك . لا سبب عندى لفشل محسن غير انه
خيالى اكثر مما ينبغى . والمرأة لا تقتنص بالخيال ، بل بالحقيقة .
فلم يعترض محسن وقال فى إذعان :

— واين هذه الحقيقة ؟ امنحانى هذه الحقيقة التى اكسب

بها عطف المرأة ؟

فقالت جر مين :

— ا تريد ان تعلم اين تجد هذه الحقيقة ؟

— نعم اخبرني أين هي ، وأنا لا أنسى لك أبدا هذا الجميل .

— إنها تشتري بالثمن ؟

— كم الثمن ؟ كل حياتي فيما اعتقد !

— بل عشرون فرنكا فقط .

— أتمزحين ؟

— بل اقول جدا . عشرون فرنكا فقط تشتري بها من

حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر « هوييجان » صغيرة

وتقدمها إلى صاحبك في الصباح هذه هي كل الحقيقة .

افهمت ؟

فحملق محسن في الفضاء ، كما أنما قد كشف عنه حجاب ،

ثم التفت الى جر مين وقال .

— أحقا ما تقولين ؟

فابتسمت جر مين وقالت في صوت المتعجب :

— يدھشنى أن قى ذکيا مثلك یجھل هذا !

-- قارورة « هويجان » فقط ! ثمنها عشرون فرنکا !

إنك تبالغين یاسيدتى ! إنها الجديرة أن أضع تحت شباکها قلبى كله !

— شباکها !

— لن أقدم اليها شيئاً زهيداً من هذه الأشياء !

— اين صاحبتك یا محسن ؟

فأجاب اندريه فى الحال عن صديقه باسمها :

— قلت لك یا جرمين إنه لا يعرف من هى ، ولا يدرى

عنها شيئاً .

فقال محسن دون أن يخرج عن هدوئه :

— هذا صحيح .

وازداد عجب جرمين فقالت تسأل الفتى :

— يا للغرابة ! وأين تراها إذن ؟ !

فأجاب محسن :

— أراها قى شباکها ، تشرف على الناس بعينين من

فيروز ، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس
ومن كل طبقة . فيهم الفقير مثلى ، وفيهم الموسر مثل ملك من
الملوك . نعم . يمر بين يديها كل يوم هذا الموكب ، وهى تبسم
من شباكه بين آن وآن ، دون أن يعرف أحد سر قلبها .

فنظرت جرمين الى محسن مليا ثم قالت :

— أهذه المرأة فى باريس ؟ أم فى كتاب ألف ليلة وليلة !

وقال أندريه ضاحكا :

وهذا الشباك أين هو ؟ فى أى قصر سحرى ؟

وأردفت جرمين ضاحكة :

— وهل توجد حقا فى باريس تلك المرأة التى يمر بين

يديها الناس وهى فى الشباك ؟ !

فأجاب محسن فى هدوء :

— فى شباك التذاكر .

فصاحت جرمين وقد فهمت مراده :

— آه ... هى عاملة فى شباك تذاكر . . .

— تياترو الأوديون !

قالها محسن كالحالم . وضحكت جرمين ، وضحك
أندريه ثم قال :

— أسمع نصيحتي يا محسن ! اذهب غداً وقدم إليها باقة
من الزهر ، ثم ادعها إلى العشاء في مطعم من المطاعم !
فتفكر محسن قليلاً ثم قال :

— وإذا لم تقبل مني باقة الزهر ؟ !

فقال جرمين من فورها :

— لا يوجد امرأة في باريس ترفض باقة من الزهر !

الفصل الخامس

-- مدموازيل ! ألم يأت بعد ؟

-- من ؟

-- ذلك الفتى الذى يضع المعطف الأسود فوق منكبيه.

-- لست أدرى يا كلوتيلد . لا أظن أنى رأيته اليوم ...

-- إني أراه دائماً جالساً فى القهوة التى أمامنا يطيل النظر

إلى هذا الباب .

-- لعله مجنون .

وعندئذ أقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ، دخل

توأ على عاملة شباك التذاكر من ذلك الباب الذى كتب عليه

بخط كبير : « الدخول ممنوع » فما إن رآته كلوتيلد العجوز

حتى تناولت مكنستها وهرولت إلى عملها وهى تهمس :

-- « الرئيس » .

— من هو المجنون يا سوزى ؟

قالها ذلك الرجل بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لا يدرك معناها غيرها. فهزت كتفها ولم تجب . فألح الرجل في شدة وغضب :

— قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين متسعيتين في لون الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة بشقراء . ثم قالت في صوت لا يدرك معناه إلا هو :

— لست أنت المقصود على أى حال .

— من إذن ؟

— ففى آخر كنا نتحدث عنه

— ففى !!

— لست أعرف بعهد من يكون ، اعتاد أن يأتى كل

يوم إلى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفذ الناس ويخلو المكان ، فيتقدم إلى قائلاً : « بونجور مدموازيل ! » فأرد عليه التحية ،

فيقف يطيل إلى النظر صامتاً ، ثم يتحرك قائلاً : « أوفوار
مدموازيل ! » ، ويمضى لشأنه . !

— أحد المعجبين من غير شك !

قالها الرئيس الشاب في نبرة غريبة . فأجابته سوزي

على الفور :

— بل مجنون . هذا كل اعتقادي .

— حسبتك تعنيني أنا .

— أنت ؟ ! لا يا عزيزي هنري . أنت العقل بعينه .

أنت أعقل مما ينبغي . آه ياسيدي . لقد تبين لي أنك أعقل مما
كنت أتصور . هنيئاً لك !

قالتها سوزي في إطراق وفي شيء من الغضب المكتوم .

وأطرق هنري أيضاً ، وجعلت يده تعبت بدفتر التذاكر على
حافة الشباك . وطال بينهما صمت قطبته كلوتيلد حارسة

المقاصير ، صائحة من جوف مقصورة :

— مسيو هنري . ! انعد مكان الأوركستر ؟

فاتهنز هنرى الفرصة ليخرج من موقفه . وأسرع إلى
قاعة المسرح وتوسط صفوف المقاعد وصاح :
— أيتها الحمقاء كلوتيلد ! الليلة رواية « الأارليزية » !
أتريدن « الأارليزية » بغير موسيقى ! اعدى محل الأوركستر
حالا أيتها الشمطاء !

وعاد السكون إلى المكان . وأرادت سوزى أن تعود
إلى تلاوة قصة « لاجارسون » التى كانت تشغل وقتها الخالى
بقراءتها كلها خفت وطأة العمل . لكن شيئاً فى رأسها حال
بينها وبين الكتاب ، فجعلت تنظر فى فضاء المكان دون أن
تثبت بصرها فى شىء بعينه . وحانت منها نظرة عارضة إلى
تمثال فولتير الرخامى أمامها فى الردهة ، وعلى شفتيه تلك
الابتسامة الساخرة المشهورة ، فحركت أهدابها قليلا وكأنا
راعها شىء منه ، لكنها تما لك وتما لك وهزت كتفها وأخرجت
من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومراة صغيرة وجعلت
تطلى وجهها الجميل حتى ظهرت كلوتيلد تقول فى غضب :

— أسمع شتائم !

فقال سوزى فى غير اكترات :

— من ؟

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنتها :

— « الرئيس » ! اما رأيت سوء خلقه اليوم ؛ إنه لا ريب

قد حدث بينكما شىء يا مدموازيل سوزى ، إن خلقه لا يسوء
إلا يوم يكون الأمر بينكما . .

فتنهدت سوزى تنهداً خفيفاً ، وابتسمت ابتسامة فاترة ،

ولم تجب .



لبث محسن فى مجلسه من المقهى الذى أمام الأوديون
يحتسى قدحاً من القهوة ممزوجة باللبن ويتأمل تلك الأعمدة
العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم . ولا تبرح عيناه
الباب كأنما هو باب فردوس لا يدرى أهو من داخله
أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين . ولم يقطع عليه تأمله

غير حركة قتي وفتاة من أهل باريس يتعانقان خلفه ويقبل
احدهما الآخر علانية كما اعتاد النباريسيون أن يفعلوا غير
حافلين بعاذل أو رقيب . فازور محسن عنهما برأسه غير راض
أن تعرض العواطف هذا العرض في الشوارع والطرق
فتبتذل وهي التي ينبغي لها أن تحفظ في الصدور كما تحفظ
الآلىء في الأصنادف . وبينما محسن في تأمله إذا كف قد
وضعت على كاهله فالتفت فرأى أندريه يبسم له ويقول :

— ماذا تصنع هنا امام الأوديون أيها الفتى الشارد !؟

— أنت ؟ دائما أنت ورائي هكذا !

— ماذا تفعل هنا ؟ أجب وأسرع !

فتردد محسن قليلا ، ثم أشار إلى المسرح قائلا :

— إنني أتأمل هيكل الفن .

فغمز أندريه باحدى عينييه وقال :

— بل قل هيكل الحب .

— كلاهما واحد . احدهما حال في الآخر ، كالنور في المصباح .

— اهـى هنا ؟

— هـى هنا ، ورواية « الأارلـيزية » هنا . آه ! ...

ما اجمـلها وما اجمـل الرواية ، نثراً وموسيقى ؟ هنا فى هذا
الهيكل قد امتزجت صورتها فى نفسى بصدى أنغام
« الأترمتزو » . ورقصة « الفراندول » !

— ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر الهوييجان !

— لـازهر ولا عطر . إنها أعظم قدراً عندى واجل
خطراً من أن أقدم لها شيئاً أو أن أوجه إليها كلاماً !

فبدا العجب فى وجه الفرنسى . وخيل إليه أنه يسمع
الغازأ وطلاسم لا قبل له بفهمها . فهز كتفيه مريحاً نفسه :

— تلك ولا شك فلسفة شرقية !

— وانت كيف عثرت على ؟ وما حضورك هنا الساعة ،

والعمل فى المصنع قائم على قدم وساق ؟ !

— لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق . ألم تقرأ صحف

الظهر ؟ قد أضرب العمال فى مصانع « كورنفوا » أضربنا

جميعاً إلى أن يعدوا بالنظر في مطالبنا . وأما العثور عليك
ومعرفة مقرك الآن فليس من المعضلات .

وابتسم أندريه في خبث ، ثم مديده إلى صديقه قائلاً :
— والآن ، هلم بنا . !

فنظر إليه الفتى دهشاً قلقاً :
— أين ؟

— نحضر اجتماع العمال .

— وما شأنى أنا والعمال ؟

— نزهة قصيرة .

— نزهة ! آه يا سيدى ! بعض عطفك وكرمك ! أخبرنى

متى ترحمنى من هذا الذى تسميه : « نزهة قصيرة ! » .

— يسرنى دائماً أن تذهب معى . .

— وأنا يسرنى دائماً أن تذهب أنت وحدك . دعنى

الآن فيما أنا فيه . إني كما تعلم لست من العمال العاطلين . إنك

لترى أن لدى عملاً . .

— فى أى مصنع ؟

— هنا ..

وأشار الفتى بيده إلى المسرح . فضحك أندريه وقال :

— أتسمى هذا عملاً ؟ آه .. أيها العاشق الشرقى الذى

ينفق أيامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى فانتفض قائماً ، وقد

لمعت فى رأسه كالبرق صور من الماضى . فرأى قهوة : « الحاج

شحاته » فى حى السيدة زينب بالقاهرة وذكر جلوس عمه

اليوزباشى « سليم » الساعات الطوال ببابها ، شاخصاً إلى دار

محبوبته « سنية » ، آملاً أن يلح لون ثوبها الحريرى الأخضر

خلف « المشربية » . وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى

شارع « الأوديون » عين الذى كان يصنع سليم فى شارع

« سلامة » منذ سنوات . أهى المصادفة ؟ أم ان هذا شىء فى

دمه ؟ لا يدرى ، غير انه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب

مكانها ، وانه يحب هذا القرب لذاته .

وعاد محسن فجلس . واتسعت حدقتا الفرنسي
دهشة وصاح :

— ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟

— إنك ترى بعينيك أنى لا أستطيع .

فأشار أندريه إلى « التياترو » بأصبعه :

— ولماذا لا تذهب إليها فتفتاحها بما فى نفسك ؟

— أنت مجنون ؟ !

— أنا المجنون ؟ ؟ !

لفظها الفرنسي وهو ينظر إلى محسن ولا يجد كلمات
يصفه بها . ومضى الفتى يقول :

— يا عزيزى أندريه . مازال فى رأسى قليل من الإدراك

يكفى لإفهامى على الأقل أن مثل هذا الجمال فى شباك مفتوح

للجمهور لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى انتظار قدوم هذا

الصعلوك الشارد الذى هو أنا !

— تريد أن تقول إن لها عشاقاً ؟

— ألف عاشق وعاشق . وقد لا يحصون عدا ، كل من
حولها يحبها ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ، ونجوم السماء !
— كفى خيالاً وشعراً . تكلم فى الواقع . هل أخبروك
أنها تحب أحداً بعينه ؟

— إنها ياسيدى محبة محبوبه .

— كيف علمت ؟

— بالفراسة .

فتمضب معين الصبر من صدر الفرنسى وصاح :

— الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هى جالسة ،

أكد أراها من هنا ! أقسم لى لم أر مثل هذا فى حياتى .

فلم يحفل محسن لصياحه ، ولم يبد حراكا . غير أنه أرسل
نظرة إلى باب المسرح ، وخطر له طيف « سليم » مرة أخرى .
وهو اليوم زوج لإحدى قريباته وأب لولدين صغيرين .
وقد شغل وظيفة عسكرية فى مصلحة خفر السواحل .
وأصبح ذا جسم ممتلئ و « كرش محترم » ، أما شارباه القائمان

فقد هوت بهما الأيام ، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل
المألوف في حياة الملايين من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت
ساعات جلوسه في قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر في حياته ،
طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت
صورة (سنية) من رأس (سليم) ومع ذلك ، فهو إن بحث
اليوم في أغوار قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد أحلى
ولا أشهى من تلك اللحظات التى كانت تطير هباء في جلوس
طويل بين اليأس والرجاء ، شاخص الأبصار إلى نافذة سنية .
ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شىء جميل يرجو أن يحدث
ولن يحدث . هو كل ما ظفر به قلب « سليم » ، وكل قلب على
هذه الأرض ، من إحساسات عليا ، ماذا يهم ما يتم من لقاء
بعد ذلك بين حبيبين ؟ إن خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان
(سليم) كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ،
وذلك الصبر الطويل على القهوة في انتظار هذا الخيال . هو
كل جمال الحب ..

واسترسل محسن في تصوراته وتذكاراته، فتسنى أندريه ،
وأدرك القنوط الفرنسي فرفع يده في حركة عصبية :
— لا . حقيقة لا . إني لا أستطيع أن أنفق عمري
جالسا هكذا . إن الزمن شيء لا تعرفونه أأنتم معشر الشرقيين ،
ولا يعنيكم أمره !
— لقد تحررنا منه .

فخملق أندريه في محسن مليا ثم صاح :
— آه ، أيها الشرقيون ! .. أأنتم بلهاء أم أنتم حكماء ؟
هذا ما يحير ...
— تلك عبقريتنا !

الفَصِيلُ السَّادِسُ

يروى الجاحظ أن رجلا دميما ، تزوج إعرابية حسناء
هامت به فسئل في ذلك ، فقال : « قرب الوساد و طول السواد » !
ذكر محسن تلك الكلمة وهو جالس يرمق أعمدة
« الأوديون » من مكانه بالقهوة ذات صباح . فاهتز في كرسيه
ولمعت عيناه فرحاً . فقد وجد السبيل الذي يسلكه مثله .
إنه يعرف نفسه ؛ فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب
ولا بفضة ، وغير موشى بألوان ولا برسوم . ولا تبهر هيئته
ولا تغر . ولكن طول الجوار قد يحمل الصادف عنه على
النظر إليه واستطلاع ما فيه . وهو إن فعل فلا شك واجد في قلبه
بعض تلك اللآلئ التي يبيحث عنها الناس . ولكن كيف يدنو
منها دنوا متصلا وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن
ليقرئها السلام ، وكيف يجد « قرب الوساد و طول السواد »

مع هذه ؟ وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق ؟
وتذكر عند ذاك شارع سلامة بالقاهرة ، حيث كان يقطن
منذ أعوام إلى جوار « سنية » . حقا لو لم تكن يد القدر
قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها لما كان لتلك الفتاة
مكان في حياته يوماً ما . نعم . لاشيء اليوم يستطيع أن يخرج
من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار « طول سواد الليل
وبياض النهار » ! ولكنه لا يعرف أين تسكن ؟ وكيف
تسكن ؟ أمفردها ؟ هذا هو الحلم الذهبي . لا . هذا مستحيل .
إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم . إنها لاشك تقطن
مع أهلها ؟ ومع ذلك ماذا يعنيه من هذا الأمر . إنه راض
بالقليل . يكفيه منها مجرد الشعور في كل حين أنها هي جارتها .
بقي عليه أن يعرف مقر سكنها وهذا ميسور . ما عليه إلا أن
يتبع خطاها وهي خارجة من المسرح في المساء : هنا وثب
محسن وكأن الأزيمة قد انفرجت . فهو منذ اليوم لن يتخذ
القهوة مطاراً لخيلاته المحلقة بلا جدوى فوق هذا المسرح .

ولكنه سينشط ويسير في طريق الأمل على هدى من أمره .
 وفرك يديه ليدفهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من
 رذاذ المطر الذي أصابهما ، وقام يمشى في الطرقات يقتل
 النهار في انتظار المساء ، متصفحاً تارة وجوه حوانيت الكتب
 وتارة (إعلانات) المسارح الغنائية على الحيطان وحفلات
 (الموسيقى السانفونية) ؛ إنه حتى اليوم لم يكن قد عرف
 موسيقى (بيتروف) معرفة كاملة . فان الحفلات السانفونية
 القليلة التي حضرها لم تعقد بعد أسباب الألفة بينه وبين ذلك
 القلب الكبير ، ولم يقنط الفتي ! فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف
 سرها لأول قادم ، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من
 طرق أبوابهم . إنما ينبغي الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب
 الهياكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة في
 الوصول ؛ فان الصبر في الفن وفي الحب هو مفتاح الطريق .
 ووقع نظر محسن على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها
 السمفونية الخامسة لبيتروف . تبتدىء بعد الظهر وتنتهى

فى المساء الباكر ، فترددوا زمع الذهاب . وجاء الظهر فتعدى
 فى مطعم صغير ثم أسرع إلى مسرح (شاتليه) ليصغى إلى
 ذلك الرجل الذى أصغت إليه أجيال من البشر . هنالك وجد
 الفتى المسرح يعجب بالناس . فاتخذ له مجلساً متواضعاً فى أعلا
 المكان . وجعل يشاهد من عل ذلك البحر العجاج من نساء
 ورجال فى القاعة والشرفات . ولم يمض قليل حتى ظهر
 الموسيقى (جابر بيل بيرنيه) رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة
 ولحيته البيضاء القصيرة . فسكن الضجيج فجأة وارتفعت
 الأيدى بالتصفيق . ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون
 المعابد ، وشعر محسن بالخشوع الذى خامره فى الكنيسة ذلك
 اليوم ، وتحركت يد الأستاذ بالعصا ، فاذا (بيتهوفن) يتكلم
 بلغته السماوية قوية أول الأمر فى ذلك الـ (أليجرو) الجليل ،
 حلوة بعد ذلك كأنها أصوات الملائكة الصافية فى ذلك
 الـ (أندانت) الهادى ، ثم فياضه بالسرور الداخلى من ذلك
 الـ (سكر تزو) المشرق إلى أن تنهى منه إلى ذلك الفرح

المتفجر من أضواء أنغام ال (برستو) الأخير .

نعم . إن هو إلا وحي السماء يتكلم بمختلف المشاعر
العظيمة التي رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة ! لقد بدأ محسن
يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التي قرأها في نيتشه : (كل
عواطف البشرية السامية في السنفونية الخامسة) .

وترك محسن المسرح وهو شارد اللب ، شأنه شأن بقية
الناس . مازالت نفسه هائمة في ذلك الجو العلوى . وخرج
إلى الطريق فاستقبله الهواء البارد ضارباً وجهه فعادت في
الحال إليه نفسه ، ونظر حوله فاذا الظلام ينبئه أن الموعد قد
قرب . فأسرع في المشى إلى « الأوديون » ووقف ببابه
مستخفياً وراء عامود يرقب خروج الحسنة .

دقت الساعة العاشرة . فأقبل شاباك التذاكر . وخرجت
القاتنة تتهادى كالغزال الذى وصفه إسحق الموصلى بقوله :

شادن لم ير العراق وفيه

مع ظرف العراق دل الحجاز

وعرف محسن هذا الشادن من مشيته ذات الدل قبل
أن يرى في الظلام وجهه . فاختلج قلبه ولم يتحرك وابتعدت
صاحبه ؛ وهمست إليه نفسه أن انطلق خشية أن تحتفى عن
نظرك . فأسرع خلفها وهو كالحائف . إلى أن بلغت سلم
« المترو » الأرضى فنزلت إلى المحطة بعد أن أبرزت لعامل
الباب تذكرة من دفتر معها . وما إن وصل محسن واتجه إلى
شباك التذاكر وابتاع تذكرة ودفع قطعة فضية واسترجع
بقيتها حتى كان القطار قد أقبل وهضى بالفتاة . وهو ينظر
فاغراً فاه خائب الأمل . وثاب إلى رشده بعد قليل . فقال
لنفسه : « لم أحسب حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبع
ينبغى أن يكون معى مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع عين
الطريق آتية غادية مرتين فى اليوم ! لا بأس . لافائدة من
الحزن والندم . غداً أعيد الكرة بعد أن أعد عدتى ! » وجاء
الغد فحصل على دفتر تذاكر فى الدرجة الثانية وانتظرها ثم
اقتفى أثرها حتى المحطة . وجاء قطار المترو فاندفع هو إلى عربة

في الدرجة الثانية ونظر خلفه فاذا هي تصعد إلى عربة في الدرجة الأولى . . وسار القطار ولا اتصال بين العربات . والمحطات كثير ولم يعرف في أيها نزلت الفتاة ! وضاع أثرها أيضاً منه في هذه المرة . فسخط وثار على نفسه صائحاً : إنها الخيبة والبله بعينه ! ألا أستطيع أن أقتفي أثر إنسان عشرة أمطار ! ثم هداً وابتسم وقال كالحالم : « ما كنت أعتقد أن مهنة البوليس السري بهذه الصعوبة » !

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى في اليوم الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب . ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين . وصعد معها في عربة واحدة وجعل يراقبها عن كשב دون أن يظهر لعينها حتى بلغ المترو محطة « پورت دى ليلاس » فنزلت . فأسرع ونزل خلفها . . وسارت في طريق طويل . تنبت على جانبيه اشجار الزيزفون والكستناء فتابعها متوالياً بين لحظة وأخرى خلف جذوع الأشجار ؛ إلى أن بلغت فندقاً يدعى « فندق زهرة الأكاسيا » فدخلت . .

لم يفعل محسن شيئاً بعد ذلك . غير أنه عاد أدراجه

وهو لا يمشى على الأرض... ولكنه يطير راقص القلب .
فقد عرف منزلها .

وفي صباح الغد نهض محسن مبكراً وفتح حقائبه وحشر
فيها ثيابه وكتبه حشراً ، وودع المرأة العجوز الدهشة على
عجل... وأعطاهما رسالة سريعة كي تسلمها إلى أندريه
وزوجته ، ووضع أمتعته في « تاكسي » ، وهو يقول للمرأة
العجوز : قبلي غنى الصغير « جانو » . غداً يخبرك أندريه عن
سر هذا كله ... إلى اللقاء...! والتفت إلى سائق السيارة
وهمس : (إلى پورت دى ليلاس فندق زهرة الأكاسيا) !
وما كادت تختفي السيارة حتى ثابتت العجوز إلى رشدها
وقالت متنهدة :

— هذا الذى كنا نحسبه عاقلاً ؟

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب محسن يسابق السيارة ،
وهو كأنه قد ظفر بايوان كسرى ! ما كل هذا الفرح ؟ لأنه

رآها تدخل فندقاً ! وإذا ظهر بعد هذا كله أنها لا تقطن هذا
النزل وأنها ذهبت زائرة . أما كان ينبغي له أن يترىث ويستوثق
من الأمر قبل هذا الرخص الجنوني بأمتعته !

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون قد فقد أثرها
أيضاً هذه المرة . غير أنه لم ير إلا أن يمعن في السير وأن ينزل
هذا الفندق فقد فات أوان الرجوع ، ووقفت السيارة بباب
الفندق وانزلت الامة وقادته المديرية إلى الحجرة رقم ٤٨
في الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه محسن وقتئذ ، أن يعرف هل
تقطن هنا حقاً صاحبه ؟ وفي أى طابق وأى حجرة ؟ ولكن
كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها ؟ ودخل الفتى
حجراته ، فألفاها صغيرة نظيفة ، ذات نافذة تطل على فضاء
(فهذا الحى هو طرف قصى من أطراف باريس وباب من
أبوابها) ، كما فى مطبخاً صغيراً ملحقاً بالحجرة ، معداً بأحدث
معدات تهية الطعام ، من موقد وفرن صغير يشعل بغاز يأتي

في أنابيب ، إلى أدوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأواني
وحوض ماء . فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ، وكل
حجرة بملحقها معدة كأنها مسكن مستقل .

ولبت محسن في حجرته ذلك اليوم يشتغل باخراج
أمتعته وكتبه وتنظيم أمره في تلك الحجرة . وهو يقول فرحاً :
« لقد أصبح لي مطبخ ، إني سأحتاج إليه من غير شك أيام
العسر والافلاس . فان أكلة في المطعم تنفق على هذا المطبخ
البسيط ثلاثة أيام ! »



نام محسن ليلته الأولى في ذلك المقر الجديد نوماً ثقيلاً .
فلقد قرأ البارحة كثيراً وتأمل كثيراً . وهو إذ يفعل ذلك
لا يستيقظ دائماً قبل التاسعة ، ولكنه في هذا الصباح نهض
قبل السادسة وثباً من فراشه على صوت فاتن يغنى كأنه طائر
جميل هذه الأغنية المشهورة في رواية « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى . . . »

لا يعرف أبداً قانوناً . . . »

فأسرع إلى النافذة وبحث عن الصوت فاذا فتاته فى
(روب دى شامبر) نسائى من الحرير الأبيض تنظم (أزهار
البنفسج) فى أصص على حافة النافذة التى تحت نافذته ! هى ؟
هنا ؟ تعيش فى حجرة أسفل حجراته ! ؟ وثب قلب محسن
ونبض نبضات ، خيل إليه انها سمعتها ، ولكنها مضت
فى غنائها :

« إذا لم تحبنى فأنا أحبك »

« وإذا أحببتك فالويل لك ! . . . »

الفصل السابع

أسرع محسن وارتدى ثيابه ووقف بباب الفندق ينتظر
خروجها . فهو قد أدرك أنها لا بد خارجة بعد قليل . وهو
يعلم أن شباك تذاكر « الأوديون » يفتح في الساعة الحادية
عشرة . ولم يخب ظنه . فقد سمع صوتها بعد لحظة وهي تنزل
السلم سائلة صاحبة النزل عن بريد الصباح . فاستعد وضبط
أعصابه . وما كادت تدنو منه حتى تقدم إليها ورفع قبعته
السوداء فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها
الفاروزيتين . فارتج عليه ولم يعرف كيف يبدأ الكلام .
وخيل إلى الفتاة أنها رأت هذا المعطف وهذه القبعة السوداء
من قبل . وبدا على وجهها أنها تذكرته . فما رأى محسن منها
ذلك حتى قال للفور :

— نعم . أنا هو ...

فابتسمت قليلا . غير أنها قالت :

— هو من ؟

— فحجل الفتى وارتيك ، ورأت الفتاة خشونة ردها

عليه فاستدركت :

— إن لم أخطيء الظن فأنت يا سيدى « زبونى » !!

— نعم . أنا هو « زبونك » الدائم . ولى الشرف أن

أكون كذلك . . .

— وما جاء بك إلى هذا الحى الذى لا يعرفه الأجانب ؟

معذرة من فضولى !!!

— فضولك يا سيدتى هو كل ما أرجو وما أحب . جاء

بى إلى هذا الحى . . . الفضول . . .

فابتسمت وقالت :

— أيضاً !!

— بل شئ أكبر جداً من هذا . . .

واحمر وجهه قليلا . وخشى أن يكون الموقف قد طال

وأنه قد قطع عليها السير . فأبدى لها أسفه سريعاً . . . وتنجى
عن طريقها واستأذنها فى أن يسير إلى جانبها قليلاً حتى يتم
حديثه . . . فأذنت له ومشيا إلى محطة المترو وهو يقول :

— إني جئت إليك أحجز محلاً لمشاهدة قصة هذا المساء !.

— شباك التذاكر ليس هنا ! إنه هناك فى المسرح .

— وما يمنع أن يكون فى أى مكان تحليل فيه ! هو

الذى يجب أن يتبعك . . . ككل شئ وكل إنسان !

فالتفتت إليه تستجلى أمره وكأنما أدركت قليلاً

حقيقة غرضه :

— وكيف عرفت أنى اقطن هذا الحى وهذا الفندق ؟

— عجباً ! اتقطين هذا الحى وهذا الفندق !! إذن انت

تقطين هذا الحى وهذا الفندق !

فنظرت إليه فاحصة كمن ينظر إلى مخلوق عجيب لكنه

مضى يقول :

— وافرحتاه ! أنا أيضاً اقطن هذا الحى وهذا الفندق !

فقالت في لهجة المستريب :

— منذ زمن طويل ؟ !

— منذ ... لست ادرى ... نعم منذ زمن طويل !

فلم تنبس الفتاة ، وساد بينهما صمت عميق ... وشعر
محسن ببرد يكتنف الموقف ورأى محطة المترو قد أصبحت
منهما على قيد خطوات ، وخشى ان تضطره هي فجأة إلى
الاقتراق عنها ولم يقل بعد شيئاً ثبت إلى الأرض هذه الصلة
الطائرة ... فاندفع يقول في غير تبصر :

— ما اجمل هذا الصباح ! لقد استيقظت على اغنية

« كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتي ! لكن .. بأى
صوت واى غناء !!

وكان الفتاة لم تسمع شيئاً . فقد لزمت الصمت . وكانت

قد دنت من سلم « المترو » الأرضى . فالتفتت إلى محسن
ومدت يدها إليه قائلة في صوت كله تحفظ ، كأنها تخاطب
شخصاً لا تعرفه ولا تحرص على ان تعرفه :

— عم صباحا ياسيدى !

وهبطت السلم واختفت فى لمح البصر تاركة القى فى
مكانه كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !

تاب محسن إلى رشفه ولكن الدهش لم يفارقه . لماذا
تركته على هذا النحو ! أكان مسرفاً فى حديثه ؟ لكن لماذا ؟
وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول !

واسترسل فى التفكير برهة يقلب الأمر على وجوهه .
إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطئ هادئ : الرجاء ،
والرضى بما حدث حتى اليوم . فإن حياته منذ اليوم إلى
جوارها شيء ليس بالقليل . بل إنه الآن يستطيع أن يعرف
عنها الكثير . يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل . وأن
يعرف مع من تعيش هنا ؟ ولم يفكر محسن أكثر من ذلك .
فقد جرى لساعته إلى الفندق وصعد إلى الطابق الرابع
وبحث عن الحجرة التى تقع أسفل حجرتها وقرأ رقمها : « ٣٨ »

ثم نزل في الحال إلى صاحبة الفندق فحياها في ابتسامة رقيقة
وحرك شفثيه متردداً لا يدري بعد ، كيف يصل إلى غرضه
دون أن يبدو عليه شيء . ولكن المرأة ابتدرته :

— أراض عن حجرتك ياسيدى ؟

ففتح هذا السؤال للفتي الطريق :

— لا بأس بها . وان كنت أفضل الحجرة السفلى ؟

— السفلى ؟ في الطابق الرابع ؟ إنها مشغولة ياسيدى !

— تشغلها أسرة ؟ ؟

— كلا ياسيدى بل آتية بمفردها !

فأخفى الفتى سروراً كاد يشرق به وجهه :

— بمفردها !

ثم استطرد في الحال :

— نعم . إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا

كالشباب ، تسعى وراء رزقها بمفردها . نعم . هذه الآتية إن

صدق ظني ؛ فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون ! .

— صدق ظنك يا سيدى .

— نعم . انى اختلف إلى الأوديون كثيراً... هى ، إن
صدقت ذاكرتى : مدموازيل ... مارى ؟ .

فابتسمت المرأة ابتسامة ، لا أحد يدرى إن كانت تنم عن
خبث ومكر وإدراك ، أو انها لا تنم إلا عن بساطة وملاطفة :
— خانتك ذاكرتك هذه المرة يا سيدى . إنها تدعى

مدموازيل سوزى ديون !

— سوزى !

انزلق هذا اللفظ من بين شفثيه وهو فى نشوة من فرح
داخلى يشبه الدهول ، وتنبه من فوره وضبط نفسه والتفت
إلى المرأة وقال :

— أشكرك ياسيدتى على هذا الوقت الذى أضعته

عليك ... أشكرك !

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعاً يهمس :

— سوزى !

الفصل الثامن

انفق الفتي ما بقي من ذلك الضحى هائماً على وجهه في طرقات ذلك الحى ، جاعلاً من شأنه البحث عن مطعم رخيص ، يلجأ إليه في أيام الضنك ، وهى كل الأيام ، عدا اليوم الأول والثانى من كل شهر . وقد وجد ضالته في شارع « مونيهورت » : .. إنها شبه « حانة » توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ، فقد قرأ فى لوحة من ورق « الكرتون » معلقة على بابها ان ثمن الأكلة الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام . وكان الظهر قد أقبل ، وأحس محسن الجوع ، فدخل ذلك المطعم واتخذ له مجلساً فى احد الأركان ، وجاءه الغلام ، فطلب إليه شريحة من لحم الثور مشوية مع البطاطس ، واعتدل فى جلسته مطمئناً يفحص وجوه الحاضرين . إنهم جميعاً من طبقة العمال ، أولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين

ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب . . !
ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه
المتصبية عرقا ، والשיاب التي تقطر بؤسا . فمحسن لا يشعر
دائما أنه في مكانه إلا بين أمثال هؤلاء وهو يوم يدفعه الرخاء
إلى مطعم فاخر . فانه يدخله دائما خائفا كالغريب ، وجعل
الفتى يقضم رغيته قضم خفيفا في انتظار الغداء ، ويصغى في
أعماق نفسه إلى تلك الرباعية من رباعيات عمر الخيام : « اذا
اردت أن تعرف الصفاء والسلام ، فاحدب على تعساء الحياة ،
أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون في شقائهم ، عندئذ
تظفر بالسعادة ! »

نعم انه فعلا يجد في نفسه الآن شيئا من تلك السعادة
الهائلة الصافية في هذا المكان المتواضع . وسمع حوارا على
مقربة منه : بين صاحب المطعم البدين وبين عامل من العمال
شاحب الوجه حاد النظرات :

— لن أتناول اليوم لحما ، انى مريض .

فقال صاحب الحان مشفقاً :

— نعم . ارى ذلك . انك تعيش و حـدك فيما اعلم

يامسيو ايفان ! ...

— انى دائماً وحدى فى الحياة .

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات محسن ، لا لأنها ذات نغم حزين ، بل لأن الفتى كان يتصور أنه هو وحده الذى يحيا دائماً وحده فى الحياة . انه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل ؛ ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئك الذين لا تطيب لهم السكنى الا داخل انفسهم . ذلك أن قليلا من الناس من يملك نفسا رحبة غنية يستطيع أن يعيش فيها وأن يستغنى بها عن العالم الخارجى . انه يعتقد دائماً أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا الا أناسا لهم نفوس كالفراديس ، تشققها الأنهار ، وتنيرها الشمس ، وتتألا فيها الكنوز ، فهى عالم من الفتنة والسحر لانهاية لبدائعه وأسراره ...

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض ، فأبصره

قد أخرج من جيبه كتابا ، جعل يلقمهم صفحاته بدل الطعام ،
وود محسن لو عرف عنوان الكتاب . ودفعه حب الاستطلاع
إلى أن يميل بجسمه ويختلس النظر ، ففاجأته عين الرجل ،
فارتبك الفتي وأشار إلى الكتاب :

— معذرة ! هذا الفضول مني ، إني أحب الكتب ،
لا شك أنه كتاب لذيذ !

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة . ولم يقل شيئا ،
لكنه مد يده وأرى الفتي العنوان على الغلاف ، فاستطاع
محسن أن يقرأ :

— « رأس المال » : كارل ماركس .

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين محسن
وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما إلى الآخر كما يأنس
الغريب إلى الغريب ، وهو الواقع . فهذا الرجل روسي ترك
بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضاً من أولئك الذين يعيشون

على القراءة والتفكير والوحدة . وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التي يقطنها في إحدى دور العمال . فرأى محسن الكتب مكدسة في كل مكان ؛ ولم يستطلع محسن شيئاً عن دخيلة الرجل ، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحاً عميقاً . فقد قال وهو يعد له الشاي على موقد في أحد الأركان :
... لكم أشعر أن وطأة مرضي قد خفت قليلاً منذ لقائنا ،

لست أدري لماذا ؟

وقدم للفتى قدح الشاي ، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الأبيض . فقد أكرم ضيفه بالكرسی الوحيد في الحجرة ، ورشف محسن رشفة وهو يقول :

— وأنت يامسيو إيفانوفتش ؟ ألا تحب الشاي ؟

— إني أفضل جرعة من « الفودكا » . آه إن هذا الشراب مع « تولستوى » ، هما كل ما أحب الآن من روسيا .

ولمح محسن بعض المرارة في كلام الرجل ، فقال له في

سداجة :

— كيف ذلك ؟ إن روسيا الآن هي جنة الفقراء .

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :

— أأتظن ؟ إن جنة الفقراء لن تكون على هذه الأرض .

وصمت الرجل قليلاً ثم قام إلى زجاجة « الفودكا » فتناول

منها جرعة وهو يقول :

— أنت أيضاً ممن يعتقدون في هذه الخرافة : جنة الفقراء !

إني فكرت في أمرها كثيراً ، ومن ذا الذي لم يفكر فيها ؟

تلك مشكلة الدنيا التي لم تحل : « وجود أغنياء وفقراء وسعداء

وتعساء على هذه الأرض » . من أجل هذه المشكلة وحدها

ظهرت الرسل والأنبياء !

— يا مسيو إيفان . لست أرى رأيك في أن المشكلة لم

تحل ! إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول .

فتفكر الرجل قليلاً ثم قال كالمخاطب لنفسه :

— أنبياءكم أنتم . . نعم هذا من الجائز . . إن الشرق قد

حل المعضلة في يوم ما . هذا لا ريب فيه . إن أنبياء الشرق قد

فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض . وأنه

ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء .
فأدخلوا في القسمة « مملكة السماء » . وجعلوا أساس التوزيع
بين الناس « الأرض والسماء » معاً . فمن حرم الحظ في جنة
الأرض ، فحقه محفوظ في جنة السماء . هذا جميل . ولو استمرت
هذه المبادئ وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى العالم كله
في هذا الأتون المضطرم . ولكن « الغرب » أراد هو أيضاً
أن يكون له أنبياءه الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد .
وكان هذا الضوء منبعثاً هذه المرة من باطن الأرض لا آتياً
من أعالي السماء ، هو ضوء العلم الحديث . فجاء نبينا « كارل
ماركس » ومعه إنجيله الأرضي : « رأس المال » وأراد أن
يحقق العدل على هذه الأرض ، فقسم « الأرض » وحدها
بين الناس ونسى « السماء » ، فماذا حدث ؟ حدث أن أمسك
الأناس بعضهم برقاب بعض . ووقعت المجزرة بين الطبقات
تهافتاً على « هذه الأرض » !! .

وتأمل محسن قليلاً هذا الكلام . ثم قال كالمخاطب لنفسه :
— كمن يلقي تفاحة بين أطفال يتلهظون !

— لقد ألقى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة والعجلة »
بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك غير « الأرض » ؛
يوم أخرج « السماء » من الحساب لأن علم الاقتصاد الحديث
لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة (الصبر
والأمل) في النفوس يوم قالوا للناس (لاتنهالكوا على
الأرض ، ليست الأرض كل شيء . إن هنالك شيئاً آخر غير
(الأرض) يدخل في (التوزيع) . آه إن أنبياء الشرق هم
العباقره حقاً !!

وصمت الرجل قليلاً ثم مضى يقول :

— إن روح (المسيحية) كما نبعت في الشرق : هي المحبة
والمثل الأعلى ، وروح (الاسلام) الايمان والنظام ، ومسيحية
اليوم في الغرب هي (الماركسية) وهي كذلك لها مثلها الأعلى :
لا في محبة الناس بعضهم بعضاً وتبشير الفقراء (بمملكة السماء) ،
وحضهم على إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، بل باغرائهم
بمملكة تقام على أنقاض طبقة وأشلاء طبقة ، ونصحهم

بالمهجوم على قيصر ، وأخذ ما لقيصر ، وإن (إنجيل) هذا الدين : كتاب (رأس المال) تجد أيضاً في بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ، كتنبؤات (يوحنا) في رؤياه ، ففيه توعده بانهيار هذا العالم وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم : أى أجسام تسير بغير رؤوس فوق المناكب . ياله من حلم مخيف ! أما (إسلام) العصر الحديث في الغرب فهي (الفاشستية) . وهي كذلك لها طابع الايمان والنظام . إيمان لا بالله ، بل (بزعيم) من البشر . ونظام لا يؤدي إلى التوازن الاجتماعي بالتواضع والزكاة . إنما هو نظام فرضته يد الإرهاب ليؤدي إلى مطامع الاستعمار ، والثوب على الضعيف من الشعوب . ولهذا الدين أيضاً (كتابه) وخطبه (المنبرية) الملتهبة ، لا بحرارة عقيدة سماوية ولكن بحرارة قوة حيوانية وشراسة دموية . آه أيها الصديق . تلك هي الديانات التي استطاع الغرب أن يخرجها للناس ، يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا !

فرفع محسن رأسه بعد طراق طويل :

— يدهشنى منك هذا القول يا مسيو إيفان ، وأنت

من العمال ؟ !

— نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء . . . لكن ، لى

من سوء الحظ رأس يفكر . إني أعرف ان وعود اديان

(الغرب) الجديدة كلها هراء . وإن هو إلا تغيير بالعمال

والفقراء . إن (الماركسية) و (الفاشستية) قد أخذتا عن

اديان (الشرق) طرقها واساليبها ، وفهما جيداً ان كل خطة

النبي هى استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين وهم

الكثرة الغالبة . هكذا فعل عيسى ومحمد . هل تبعهما اول

الأمر غير العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء ؟ ذلك ان طبقة

الراضين والموسرين ليست فى حاجة إلى ان تتبع أحداً !

وهى مع ذلك قلة نادرة وسط خضم الدهماء . فالدهماء هم

سند الدين ، وهم القوة فى كف النبي . لقد ادرك ذلك جيداً

أنبياء اوروبا فى العصر الحديث ودرسوا « Technique » النبوة

على أيدي الأئمة الشرقيين . فبنوا كل شيء على أساس واحد :
الدهماء . وجعلوا يتنافسون في إرضاء هذه الكتلة الآدمية
بالوعود : وعود واقعية قريبة الأجل ، (وهنا كل غباء هؤلاء
الأنبياء !) . . إن التنافس بين الدينين ليدولى شديد الخطر ..
وإني لا تنبأ لك منذ الآن بوقوع نوع من (الحروب الصليبية)
بين (الماركسية) و (الفاشستية) ! تحشد فيها الدهماء ضد
الدهماء . وتتناثر فيها الجثث وتتطاير الأشلاء . هذا كل مكسبنا
إنهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ والعزاء الجميل
الذي غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيين ..

— أي وهم وأي عزاء ؟ !

— جنة السماء ومملكة السماء !

— اتسمى هذا وهما ؟

— آه معذرة .. معذرة ! إنك مؤمن ! ما اسعدك انت !

وما أحسن حظك !

الفصل التاسع

خرج أندريه من العمل في استراحة الغداء ، فوجد رسالة من محسن تنتظره . فلم يدهش . ان رسائل محسن اليه قد كثرت منذ أن غادر منزل الأسرة في (كورنفوا) جاريا خلف قلبه ، فض أندريه الرسالة وقرأ :

عزيزى أندريه :

لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن هذا الصباح قد حدث أمر جلل ، بينما أنا قرب النافذة أصغى إليها خفية إذا الباب يطرق وإذا (الغسالة) قد حملت إلى ثيابي النظيفة وقدمت إلى ورقة الحساب : عشرة فرنكات ، فلبعت في ذهني عند ذاك فكرة أعجبتني وأرجو أن تعجبك ، ذلك أنى تناولت الورقة وسطرت في ذيلها : (سيدتى : لا أجد معى الساعة نقوداً ، فاذا تفضلت وأديت عنى الحساب فانى

لا أنسى لك هذه اليد . ولك جزيل الشكر سلفاً مع احترام
 المخلص : جارك رقم ٤٨) ودفعت الورقة إلى الغسالة وأحلتها
 على الحجرة السفلى التي تقطنها جارتى مدموازيل «س» !
 ومضت الغسالة بالفعل . وبقيت أنا أرتجف قلقاً . أتراها
 تؤدى غنى ؟ واخجلتاه إذا رفضت ! وإذا قبلت فما يكون
 معنى هذا ؟ ينبغي أن أبادر فأبشرك . لقد عادت الغسالة إلى بعد
 هنيهة تقول فى ابتسام إن مدموازيل «س» جارتى قد دفعت فى
 الحال دون أن تنبس بلفظ ؟

ماذا تقول فى كل ذلك ؟ (محسن ...)

ابتسم أندريه وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ ودخن
 قليلاً ثم أخرج ورقة وكتب :
 عزيزى محسن :

ماذا أقول فى كل ذلك ؟ أقول إن عهدى بالمحبين أن
 يظهر وا دائماً أمام الفتيات بمظهر النعمة واليسر والرخاء وأن
 يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت الاقتضاء ، ولكنك قد

عكست الوضع وأصبحت مدينا لفاتنتك بكل شيء ، أى :
 (بالقلب وبفاتورة الحساب) إن مسألة التجائك فى الاقتراض
 إلى مدموازيل (س) ولما تتوثق بينكما المعرفة لغاية فى المرأة !
 وإنى لأعجب جدا لهذا الحادث ، وأرى فيه فجر عهد جديد فى
 تاريخ الغرام ؟
 (أندريه ...)

مرت أيام بعد ذلك والفتاة تصادف الفتى ، تارة بباب
 الفندق وتارة فى المصعد . ولا غرابة فى ذلك ، فهما متحdan
 فى المسكن . إنما الغريب فى الأمر أنه منذ أن أدت عنه الحساب
 لم يعد يقبل عليها ذلك الاقبال الذى كانت تراه منه ، ولم يعد
 يحببها إلا تحمية مختصرة ، وإذا جمعهما المصعد فهو مطرق
 لا يريد ان يتكلم ، ولا أن يشير بحركة تم عن اهتمام لأمورها ،
 هو الذى كان ينتظر منه على أن يبادر فيشكرها على عطفها
 الكريم . انه لم يشكرها ، بل انه لم يشر قط إلى ما حدث
 بذكر أو تلميح . وانفردت سوزى فى حجرتها ذات مساء
 وجعلت تفكر قليلا فى أمر هذا الفتى الغريب . أهو شرقى

متوحش لا يعرف الآداب واللياقة ؟ لكن الأمر في ذاته أبسط من أن يحتاج إلى معرفة بالآداب أو اللياقة . ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلاً ، إنما هو تصرف مقصود ، لماذا ؟ هذا ما لم تهتد إليه الفتاة ، أن هذا الفتى غريب الأطوار . هذا كل ما تستطيع أن تفهمه .

* * *

لم يكد ينتهى الأسبوع ، حتى تلقى أندريه هذه الرسالة :
عزيزى أندريه .

الآن ، آن الأوان أن أفى بدينى ، ولا يليق أن أرد إليها عشرة فرنكات ، إنما يحسن بى أن أقدم إليها هدية . ماذا ترى أن تكون هديتى إليها ؟ أشر على سريعاً . « محسن . . »

فأسرع الفرنسى وارسل الجواب :

عزيزى محسن :

إن باريس كلها لم تخلق إلا للنساء . وكل تجارة باريس هى فى الهدايا التى تقدم إلى النساء . ما عليك يا صاحبى إلا أن تمشى قليلاً فى أى شارع من شوارع باريس . فانك واجد

عشرات الحوانيت التي تعرض ما تشتهى لصاحبته من حقائب اليد ، وصناديق « البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ، وقد مضى نصحناء لك في هذا ولم تقبل النصيح ؟
« أندريه ... »

قرأ محسن هذه العبارة وردد كالمخاطب لنفسه في غير اقتناع
— حقائب يد وصناديق « بودرة » وزهور وعطور ،

أشياء لا معنى لها ، إنك أحق يا مسيو أندريه !

ثم مزق الرسالة ووضع القبعة السوداء على رأسه ونزل إلى الطريق هائما على وجهه طول يومه في شوارع باريس يفكر ويبحث عن الهدية دون أن يدخل حانوتا أو يرسل عينه إلى وجه متاجر . فهو لم يعتد النظر إلا إلى واجهات حوانيت الكتب . وقادته قدمه مصادفة آخر الأمر إلى سوق الطيور في الضفة اليمنى من نهر السين ؛ .. وقرع سمعه صوت بغاء صغير ينادى المارة بصفيـره وكلـماته الملقنة ، فرفع محسن بصره إليه وتفكر هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع البغاء ،

وخرج حاملاً قفصاً ينبعث منه صفيح وضجيج ، ومشى به مشية المنتصر الذي ظفر بضالته !! لكنه لم يسر خطوات في الطريق ، حتى وجد القفص الذي في يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة ؛ وإذا منظره وهو حامل البيغاء وكلاب الحي خلفه قد بدأ يستلفت أنظار المارة ، وخشى أن يجتمع حوله العاطلون والصغار . فاستأجر سيارة حملته مع الهدية إلى الفندق . وما إن آوى محسن إلى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل وجلس إلى بيغائه طول الليل ساهراً يلقيه كلمات وعبارات . إلى أن رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع في عنق قفصه جبلاً رقيقاً وفتح نافذته وأدلى بالقفص في الفضاء إلى أن حط على حاجز نافذة الفتاة ، ثم جعل يناجيه مناجاة (حافظ الشيرازي) للبيغاء في قصيدته التي قال فيها :

(أيها البيغاء ! أيها الناطق بالأحاجي ! احرص إلى الأبد على ريشك زاهي في لون الياقوت ، وعلى قلبك فياضاً بالمرح ! آه أيها الحظ ، اسكب على وجوهنا ماء الورد ، ولا تبخ للصاحي

بأسرار النشوة . نعم ، إن الحكمة هي الثراء الحقيقي ، ولكن ..
كم تساوى إلى جانب نظرة الحب ! ...)

استيقظت سوزى فى الصباح واتجهت إلى نافذتها مترنمة
كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام بيغاء
فى قفص . فدهشت ثم أبصرت الحبلى المدلى ، فأدركت من
أين هبط ، رفعت عينيها إلى الطابق العلوى ، وإذا الفتى فى
نافذته يبسم لها كأنما كان فى الانتظار ، وحياتها تحية الصباح
فردت عليه التحية باسمه ، ثم أشارت إلى القفص قائلة :
— لمن هذا ؟

— لك .

— لى أنا ؟ شكرآ لك ياسيدى ، لكن لماذا ؟
— هذا ما استطعت أن أقدمه إليك اعترافاً بجميلك
فأرجو أن تقبله منى !

— ما أجمل هذا البيغاء ! ما اسمه ؟ !

— اسمه ... « محسن » .

— « محسن » !

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر البيغاء وصاح :

— أحبك ، أحبك ، أحبك !

فضحكت سوزى وقالت :

— عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

فأجاب الفتى لفوره :

— لا أحد ... في « عينيه » نظر ، هذا كل ما في الأمر !

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب . وقالت :

— أكرر لك شكرى يا ... مسيو ...

— أسمحين أن أقدم إليك نفسى .. ولو أن التقدم

من هذه النافذة العالية لا يسمى تقدماً ... فالأصح أن أقول :

أن ألقى إليك بنفسى !

فضحكت الفتاة وقالت :

— يسرنى بالطبع ذلك . غير انى لا أضمن لك الوصول

سالمًا إلى نافذتي . فالتق باسمك وحده الآن فهو يكفي .

فقال الفتى :

— اسمي « محسن » ...

فنظرت إليه نظرة استغراب :

— كالبيغاء ؟ !

— نعم . لى الشرف أن يكون اسمي كاسم بيغائك !

فابتسمت ولم تجب ، وظن محسن أنه قد تحدث إليها أكثر مما ينبغي ، وخيل إليه أنه ربما أثقل عليها . وخشى أن يزيد في الكلام ، فتبدر بادرة تمحو من شفقتها هذا الابتسام ، فحياها سريرا بإشارة خفيفة ، وابتعدت عن النافذة محتفيا الفور عن أنظارها ... ثم جلس إلى مكتبته يتأمل الأمر . عجبا ، مامعنى الجلوس ، وفيم التأمل ! لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث . لماذا تركها ؟ ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود إليها ؟ . ولكن نافذتها كانت قد أغلقت ...

الفصل العاشر

شعر محسن حوله يبرد الوحدة . وأراد أن يحدث أحداً
أو يذهب لمقابلة أحد . غير أن الوحيد الذى يستطيع أن
يفضى إليه بشيء هو . أندريه . لا . إنه ليس مجنوناً حتى يخبر
أندريه اليوم بما حدث ، فيسخر من خيبته . ويلقى على مسامعه
مرة أخرى : « إن المرأة تكسب بالواقع لا بالخيال » أه
الواقع ! الواقع هو ... انه هو الواقع فى حب لا أمل فيه ،
ولا يجد إلى جانبه حتى من يعزيه ! وتذكر ايفانوفتش . نعم ،
لعل ذلك الروسى المنفى مثله فى مجاهل « العزلة » يستطيع أن
يسرى عنه الساعة بحديثه الغريب واطلاعه وتأملاته ...
وكان المساء قد أقبل وأدرك أن صاحبه لابد قابع فى
حجرته الحقيبة تحت سقف ذلك المنزل العتيق . فذهب إليه
من فوره ، فوجده كما توقع أن يراه جالساً فوق صندوقه

الخشبي . كما يجلس الثراة فوق «الشيزلونج» . وبين يديه كتاب
ضخم ينهل من صفحاته كما ينهل الألماني من كوب « جعة »
ذى زبد .

فما ان رفع رأسه ورأى الفتى . حتى أشرفت أساريره
المظلمة ، وانتعش قليلا وجهه الذابل ، وطرح الكتاب من
يده . ونهض يهبيء للزائر مكاناً خليقاً بجلوسه . فمنعه محسن
بإشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق . وصمت
قليلا . وبدأ عليه أنه يريد أن يقول شيئاً فى نفسه . ولم يتردد
طويلا . فقد انفجر على الرغم منه :

— يامسيو إيفان ! إني لست سعيداً . ولعلك أنت أيضاً كذلك .
إن سر تعاستنا هو أننا نعيش فى هذه الحجرات المغلقة . إننا نجعل
الواقع وطرأته المباشرة لاشئ . يكتسب بالخيال فى هذه الحياة ...
فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساحرة وقال :
— من عليك هذا الكلام أيها الشرقى !
— هى البداهة ، ولكن أعيننا هى التى لا ترى ..

— لا . لست اصدقك . ذاك كلام لا ينبغي ان يقوله

مثلك ...

فمرطيف أندريه برأس محسن . لكنه لم يقل شيئاً ومضى

إيمان يقول :

— الواقع والطرق العملية المباشرة ؟ تلك بالضبط كل حياة الحيوان . الفاصل الوحيد بين الانسان والحيوان هو « الخيال » . إن اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة خارج عالم الواقع والمادة ، اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة للوصول إلى غاياته ، اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل « يحلم » فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة . هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية . الحلم هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان . الخيال هو تاج السيادة والسمو الذى تميز به الإنسان !

وسكت لحظة . فقال محسن :

— نعم ، ولكن « الواقع » ..

فانطلق الروسى :

— « الواقع » ؟ الواقع ... إني لا أحترم الآن كثيراً

هذه الكلمة !

و مر طيف أندريه مرة أخرى برأس الفتى . حقيقة .
إن صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائماً هذه « الكلمة » ؛
ولكن هذا الروسى الشائر ، الواقف فى منتصف الطريق بين
الشرق والغرب ... من يضمن لمحسن انه على حق فى كل هذه
التصورات . وبدأ الشك على وجه الفتى ... وقرأ إيفان مايجول
بخاطره . فصاح به وهو يهزه من كتفيه :

— آه ! (الخيال) هو ليل الحياة الجميل ! هو حصننا

وملاذنا من قسوة النهار الطويل إن عالم (الواقع) لا يكفى
وحده لحياة البشر . إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية
كاملة ! نعم ، مرة أخرى أقول لك إني شديدة الإعجاب
بأنبياء الشرق . إن المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى أنهم
قدموا للناس عالماً آخر . عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة

جميلة ييضاء . زاخراً بجنت فيها أنهار من التبر وأشجار من
الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كألسنة الأبالسة ،
الهائمة كالحفافيش ... في هذا (العالم) استطاعت البشرية أن
تعيدش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع . (الغرب) أيضاً
حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هذه العوالم . فظهر فيه
أنبياء الخيال مذهبوا « الأتيويا » . فصنع توماس مور :
« جزيرة الخيال » . وكامبانيا : « مدينة الشمس » . وموريلي :
« قانون الطبيعة » . وكاييه : « رحلة إلى إيكارى » !! ألعاب
صيدانية . كتلك القصور والقلاع والجنان التي يقيمها الأطفال
على شاطئ البحر من الرمال ! نعم ، خيال مرتب بيد المنطق
مزين بنظريات العلم والفلسفة . كما تزين قصور الصيدية بأوراق
الحلوى الفضية الذهبية ... لكن كم من البشر عاش في هذه
(العوالم) التي صنعتها أيدي (العلماء) أنبياء الغرب ؟؟ آه ،
إن الغرب إنما عاش أجمل حياته في ذلك الحلم السماوى وذلك
العالم العلوى الذى صنعه الشرق . وإن ضياع الغرب لم يبدأ

إلا يوم أفاق من هذا الحلم، ونزل إلى عالم واقعته يدب في هضابه
المتحجرة ووديانه الجافة كما تدب الحشرات ...
وسكت الروسى لحظة، ثم عاد يقول :

— آه ! .. السماء، الجنة، الجحيم ! جرد عالمنا الأرضي
من هذه الكلمات الثلاث التي بنيت في الشرق، تنهار في الحال
أروع أعمالنا الفنية . كل ما استطعنا أن نخلق من جمال إنما
صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة السماء، إنني أعرف أن
(الغرب) اليوم موضع تقدير وإكبار، لعلمه واستكشافاته
وإنتاجه واختراعاته، لكن .. ما قيمة هذا إلى جانب ذلك
الاستكشاف الأعظم الذي ظهر في الشرق، إن الغرب
يستكشف الأرض، والشرق يستكشف السماء . إن الذي
استطاع أن يغمر البشرية كلها في حلم يدوم الأحقاب، إن الذي
استطاع أن يصنع مثل هذا (الحلم) فهو حقيقة فوق مستوى
البشر . إنا نمجد ذلك الذي أوجد للإنسانية واسكن الإنسانية :
قارة جديدة، .. لكننا لا نرى مجد ذلك الذي أصدد

الإنسانية وأسكن الإنسانية : السماء !

وتأمل محسن ملياً قول الروسي وهو مطرق ، ...

نعم ، . إنه ليشعر دائماً أنه لا يسكن الأرض وحدها .
إن حياته ممتدة أيضاً إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة
من القديسين أهل السماء . إنه لن ينسى (السيدة زينب)
الطاهرة وفضلها عليه في الملمات . إن لها وجوداً حقيقياً في
حياته . مامن مرة وقع في شدة إلا وجد العزاء عند باب
ضريحها ذى القضبان الذهبية . كل نجاح ظفر به في الحياة هو
دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة
من الحظ إنما هي ابتسامة من شفقتها . إنه يتخيل هيئتها ووجهها
وملامحها ؛ .. ويعتقد أنها في السماء بردائها الأبيض إنما تنظر
إليه دائماً وترعاه وتجعله من شأنها . كأن هذا هو كل عملها .
لكن هنالك ساعات تتجههم له فيها الحياة ، وتقسو عليه
الظروف ، ويرى كأن « السيدة » قد نسيت . فيفطن ويذكر
لوقته إنه في تلك الساعات وتلك الظروف ، إنما هو الذي كان

قد نسيها ، نعم انها لا تنسى الا من ينساها . اتنا أهل الأرض
لنشغل أحياناً بمناصاف من فوز أو لذة أو متعة فنقع في
غشية من غرورنا . ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها .
عند ذاك تتركنا السماء في حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة .
فلانستيقظ ونرى ما صرنا اليه إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء
وإلى العطف العلوى . ذكر الفتى كل ذلك . لقد كان مسجد
« السيدة زينب » هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس .
وكانت « السيدة » هى التى تقلب له صفحات الكتب فيما خيل
إليه ، وكانت هى التى تصبره وتشده عزيمته ، وهى التى كانت
تجفف بأناملها الرقيقة النقية دموع حبه الأول وآلامه الأولى .
انه لم يكن وحيداً . آه .. ما أقوى الإنسان الذى يعتقد أن له
صديقاً ونصيراً من أهل السماء ! انه كان يحملها نصيبها من
التبعات اذا أخفق فى خطوة فان « السيدة » هى التى تخلت
عنه ، ولعلها أرادت هذا الاخفاق لحكمة لا يعلمها هو ، وإذا
وضع أمله فى شيء اتجه إليها ضارعاً أن تقف إلى جانبه وتضم

همسها إلى همسه وصوتها إلى صوته في رجاء « الله » . ان هذا الإحساس جميل ، وهذا الاعتقاد مريح . نعم ، لو شعر محسن لحظة انه في وحدة مطلقة ، وأن السماء ليس لها وجود ؛ وانها جرداء جدداء غير عامرة بكائنات عليا ، تتصل حياته بحياتها ، وانه قد خلى بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً !

عندئذ لمعت في رأس الفتي كسنا البرق صورة من حياته في الغرب ، وللهرة الأولى تنبه الى أمر مخيف : انه لم يذكر « السيدة » في حرارة إلا الآن ، بعد حديث « إيفان » . لقد حمرت الأيام تلو الأيام وهويطالع أفكاراً مختلفة من الأغريق إلى فولتير . ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمت القرن الماضي إلى انقلابات ما بعد الحرب . انها لحي تعصف بكل رأس . وان رأسه قد أصبح كبقية ماحوله من رؤوس ؛ فقاعة بين فقائيع تملؤها الأفكار والحوادث ، وتتدافع في شبه اناء من خمر مغلى . ليس في حياته اليوم إذن مكان تهبط

فيه « السيدة » بردائها الأبيض ! وان روحه قد غار كما يغور
النجم تحت شمس رأسه المحترق .

آه .. انه قد نسي حاميته التي في السماء ! لو أنه أحسن يدها

على كتفه ... لما تعثر في خطاه أمام صورة (سوزى) .

الفصل الحادى عشر

فتح محسن عينيه فى الصباح ، على شبه صوت ملائكى
ينادى اسمه . أترأه صوتاً آتياً من السماء ؟ ولكن النداء تكرر
واضحاً عذباً . فوثب الفتى من فراشه ، وأصغى ، ثم ابتسم : انه آت
من النافذة السفلى . عجباً ! انها سوزى تقول فى نغمة موسيقية :

— محسن ! محسن !

فأسرع الفتى إلى النافذة كالمجنون :

— أأتادينى . ؟

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة فى شىء من الدهشة . ورأى
الفتى يدها على قفص الببغاء ، تقدم إليه حب (القرطم) ،
فأدرك كل شىء . فتخاذل وارتابك :

— معذرة . لقد نسيت انى أشترك مع ببغائك فى عين

الاسم ...

ورأها تبسم . ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر

أنضر من زهر (النرسييس) في أصص نافذتها . فتشجع وقال :
— نعم ، انى أشترك مع هذا البيغاء فى الاسم ، ولكنى
لا أشترك معه فى الحظ . ان الفرق بيننا عظيم . انه هو الذى
يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هذا الأحمق الذى
لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! آه . . لأولئك الاشتراكين
الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وأنا
لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى فى الحظ والنصيب بهذا
البيغاء !

فضحكت الفتاة وقالت :

— أترأه مطعماً عسيراً ؟ !

— أن أكون مثل هذا البيغاء ؟ لست أطلب شيئاً الا

أن أكون مثله بالضبط !

— ولكنك لست فى قفص .

— آه ياسيدتى ! انى فى قفص ، لا يراه كل الناس . . !

فنظرت إليه الفتاة ملياً ثم قالت باسمة :

— إذا كنت حقيقة كذلك . فأنت تستحق إذن شيئاً
من ذلك العطف الذى تمنحه الطيور السجينة فى الاقفاص !
فأسرع الفتى يقول فى تضرع :
— ثقي أنى أشد طيور الارض استحقاقاً لعطفك ! فسأله
الفتاة :

— وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ انى بالطبع
لا أستطيع أن أقدم إليك قليلاً منى (القرطم) !
— انك تستطيعين أن تتناولى معى قليلاً منى (القرطم) . . .
هذا المساء فى مطعم . . . فى أى مطعم يروقك . . .
فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :
— يالك من مداعب ماهر !
— أنا ؟ آه ياسيدتى . لأول مرة أسمع من يصفى بالمهارة
فى شىء ، شكراً لك !



لم يأت العصر ، حتى كان محسن فى منزل أندريه ، يقيم

الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسى أمام المرأة ،
وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت « جرمين »
تنظف معطفه الأسود بالبنزين وتزيل عنه البقع . ورأى
الفتى اهتمام زميله ، فصاح يحمسهما :

-- نعم ، إصنعامنى إنساناً خليقاً بلقاء امرأة جميلة !

فابتسمت جرمين وقالت !

-- عرفت اسمها أخيراً ؟

— سوزى !

لفظها الفتى همساً كمن يرتل صلاة ، ولكن جرمين سمعته

فقالت باسمه :

— اسم جميل ، والموعد أين ومتى !

— هذا المساء فى محطة المترو !

— وبعد ؟

— سنتناول العشاء ..

— فى أى مطعم ؟

— آه... صدقت... لست أدري... يا اللصيبة! .
نسيت التحري عن المطعم الموافق... أسرعاً! أسرع يا أندريه
وأخبرني عن رأيك في هذا الموضوع الخطير!
فصاح أندريه يائساً :

— لا تهتز هكذا ، لقد فسد ترتيب شعرك ، وتبعثرت
خصلاته من جديد ، آه لقد ضاع تعبي فيك سدى !
— ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى...
— لا شيء أتفه من موضوع المطعم . هذا الذي تصفه
بالخطورة والأهمية الكبرى! .. كل شيء تافه تتخيله أنت
دائماً هائلاً ، لو كنت مكانك لأخذتها بكل بساطة إلى مطعم
« بوكاردى » !

فضحكت جر مين ضحكة طويلة ، فنظر إليها زوجها
نظرة العجب :

— لماذا تضحكين :

— إنه المطعم الذى ذهبت بي إليه يوم لقائنا الأول ،

ومع ذلك .. لم تشأ يومئذ أن تطلب من أجلي « أورد فر فاربيه »!

— أما زلت تذكرين تلك الحماقات !

فصاح محسن وهو يلتفت إليهما !

— آه أحسنتما صنعاً بهذه الحماقات ! سأطلب لها أنا هذا

« الأورد فر فاربيه » !

فاتهره أندريه :

.. قلت لك : لا تهتز ! ولا تتحرك حتى أفرغ وأطمئن

على منظرِكَ !

فالتفت الفتى إلى المرأة وهو يقول في قلق :

— وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الإطمئنان ؟ !

— إن الأمر على كل حال لا ينبغي أن يدعو إلى اليأس !

فسكت محسن على مضض ... ثم عاد يقول سريعاً كمن

تذكر شيئاً هاماً :

— اسمع يا أندريه ! في جيب معطفي قارورة « هويجان »

من الصنف الغالى ، اشتريتها عملاً بنصائحك الغالية . ألا ترى

أن أتعطر منها قبيل اللقاء ، إنها كفيلة أن ...

— المسألة ليست مسألة « هوييجان » !

— تريد أن تقول ...

فألقى أندريه نظرة أخيرة على شعر محسن ووجهه ،

ثم صاح في نبرة مرحة :

— أريد أن أقول إن لك الآن وجه عاشق يستطيع

أن يذهب توأ إلى مواعده !

فهنض محسن واتجه إلى جرمين الباسمة :

— أهو يخذعني ؟

فقالت جرمين للفور وهي تقدم إليه المعطف :

— إنه يقول الحقيقة . البس معطفك ، وانطلق مطمئناً ،

أيها الفتى السعيد !

فارتدى محسن معطفه ، ووقف أمام المرأة يتأمل هيئته

طويلاً :

— المسألة مسألة ذوق ! مادام هذا المنظر يصلح في رأيكما

للذهاب إلى المواعيد ، فليس من الكياسة أن أظعن في ذوقكما !
إلى الملتقى !

قالها وهو يتحرك إلى الباب رافعاً قبعته السوداء في الهواء ،
وشيعه أندريه وزوجته إلى السلم وهما يقولان باسمين :
— تشجع !

* * *

انتظر محسن الفتاة إلى أن جاءت ، وذهبا إلى « بوكاردي »
فتناولوا العشاء ، ثم خرجا إلى « الجران بولفار » فشربا القهوة
في أحد المشارب ، ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت سوزى
طالبة العودة إلى مسكنها . عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب إلى
رشدته ... وأحس فجأة الجوع . فهو لم يأكل شيئاً في المطعم ،
هو الذى كان قد دخله جائعاً ، خرج منه جائعاً دون أن يشعر .
وهل كان فى مقدوره وهو إلى جانبها أن يفكر فى أكل أو شرب .
ان المعدة لتنام عند ما تستيقظ الروح انه لا يذكر شيئاً من
أمره ، لكنه يذكر كل شئ من أمرها هى ، يذكر حركة يديها
الرشيقتين وهى تتناول « الأورد فر فاريه » . ويذكر جمال

فمها وهو يشرب (البورجونى) ، ويسمع صدى ضحكاتها
الرقيقة الخافتة عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو إليها ،
أو الكلام الطويل فى أشياء لم يعد يذكر ماهى ...

ومرت الساعات كأنها اختلاجة من أهدابها ، وهاهو ذا
قد حان وقت الاقتراق عنها ! لا ، هذا مستحيل ، أبهذه السرعة
قد وصلا إلى باب النزل ؟ لماذا يقسو القدر على الناس هذه
القسوة ؟ ان الساعة لتطول كأنها الدهر عندما تقع فى كرب
أو بلاء ، وأنها لتقصّر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم !
ولم يرع الفتى الايدها تمتد إليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...
— لا . ان الوقت مازال متسعاً ، ونحن مازلنا فى أول
الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به إليك ...

قالها محسن وهو محتفظ بيسد سوزى فى يده فى حرص
وخوف ... فقالت الفتاة :

— إني لا أستطيع طبعاً أن أستقبلك فى حجرى الساعة
ولا أن أصدق إلى حجرتك ، فافض اذن بما تريد هاهنا الآن ،
أو ... فلنسر قليلا فى هذا الشارع ...

ومشياًجنباً إلى جنب في ذلك الطريق الطويل ذى الأشجار
الكبيرة ، إلى أن بلغا حدود « پورت دى ليلاس » ، وعادا
من عين الطريق إلى أن اقتربا من ميدان (جامبتا) . وفاجأتهما
الأنوار فرجعا أدراجهما يحتميان فى ظلام الأشجار . والفتى
لا ينبس ، وهى صامته صمت من ينتظر منه الأفضاء بشيء . . .
وكأنما عيل صبرها . فقالت فى صوت خافت رقيق :
— ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

— كل شيء .

— إنى مصغية إليك .

فأراد محسن أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من رأسه
كما تهرب العصافير من الأقفاص . إن لديه إحساساً عارياً ،
ولا ينبغي أن يظهره عارياً أمام سيدة ! لا بد له من ثوب أنيق .
فالمرأة يسرها دائماً الثوب الأنيق ، وإن كان على جسم نحيل
من عاطفة نحيلة . إن هذه الفتاة لاشك تدرك ما عنده ، وهى
لا تكتفى بذلك ، وهى إنما تدمى قدميها سيراً فى هذا الليل
لتسمع الفاضلاً يلذها سماعها فى ذاتها . . . فماذا تراها تفعل

بمشاعر قوية في اطمار بالية ، وخشى محسن العاقبة ، وتغلب
عليه الوهم فقال كالهامس :

— لا .. لا أستطيع الآن ...

فقالت هي أيضاً كالهامسة :

— لماذا !

— غداً ، إذا شئت ...

— بل الآن .

فتردد الفتى لحظة ، ثم تما لك وانطلق انطلاق الهارب
الخائف ، الذي يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات ، قائلاً
كال مخاطب لنفسه :

— لست جديراً أن أقول لك ما أريد الآن ، دعيني

أبعث إليك غداً برسول عنى يحسن الكلام !

— من هو ؟

— الشاعر الأغريقى القديم (أنا كريون) ، سأحضره

معنى عصر الغد عند محطة المترو ، وسيفضى هو إليك بكل شئ !

الفصل الثانى عشر

كانت كل حياة محسن فى الأربع والعشرين ساعة التالية :
ترقب الموعد ، وإعداد نفسه وترويض لسانه وضبط أعصابه
لمواجهة الموقف . . . وجاء العصر فارتدى ثيابه فى عناية وهم
بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خادم النزل
تقدم إليه رسالة وردت « بالبريد السريع » ففرض الفتى غلافها
بيد ترتجف ، وقرأ فى لمحة واحدة :

صديق . . .

أرجو منك أن لا تنتظرنى هذا المساء ، فى المكان
المعروف ، فانى سأبقى فى العمل إلى ساعة متأخرة لم تكن فى
الحساب ، إذا كنت مع ذلك فى مسكنك ، فانى أمر بك عند
منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » ؟
سوزى
عاد الدم يجرى إلى وجه الفتى ، وهدأت نفسه ، وانتظمت
دقات قلبه . ثم خلع سترته وجلس إلى مكتبه يفكر باسماً ،

ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة « صديق » ثم عند قولها « فاني أمر بك » . فأحس طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه إلى ماحوله . إنها ستأتي هنا بعد قليل . ما كل هذه الكتب المكدسة في غير ترتيب . ينبغي أن يقر في الحال النظام محل الفوضى . وقام من فوره إلى حجـرته ، يهيئها للاستقبال العظيم .



وجاء الليل وانتشر الظلام في سماء شبه صافية تؤذن بانتهاء الشتاء ، ووقف محسن قرب النافذة ينظر إلى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء ، وأذنه مرهفة إلى الباب ، في قلق ونفاد صبر ، وخيل إليه مرات أنه يسمع نقراً خفيفاً على بابه ، فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحداً . لقد اختلط في رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار . وسمع أخيراً طرقه هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه . فأيقن أنها هي .. فأصلح من شأنه على عجل ، وفتح الباب ... نعم ، إنها هي ... هذه المرة ...

بقبعتهما ومعطفها وبقيّة ثياب الخروج ، ودخلت مبتسمة
كأنها زنبقة :

— لقد جئت توكما ترى ، قبل أن أمر بحجرتي آه ...

أهذه حجرتك ؟ ... إنها جميلة ...

— الآن فقط ، أرى أنا أنها جميلة .

— ما كل هذه الكتب ؟ إنك تقرأ كثيراً . أتلد لك

بهذا المقدار الحياة ...

— وأنت ؟

— إنى أفضل الحياة فى ... الحياة .

— أنت أيضاً !

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

— اصبت . ارى الآن انى على خطأ ، ما الذى يعينى

من أمر حياتك أنت ، ما أنت إلا (حلم) يحيا فيه ...

الآخرون ...

— ومن هم الآخرون ؟

قالتها في ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات
كتاب فوق المكتب . وأرخی الفتى بصره ولم يجرؤ على
المضى في الكلام . . . ونظرت إليه لحظة ثم قالت في صوت
خافت رقيق :

— إني مصغية إليك .

فتذكر محسن البارحة ، وفطن إلى مرادها . فرفع رأسه ،
وقال :

— أسمحين لي ان اقدم اليك من يستطيع أن يتكلم
باسمى . . .

— ذلك الشاعر الأغريقى الذى قلت لي عنه .. ما اسمه ؟

— « أنا كريون » .

— نعم ، نعم ، أين هو ؟

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذى تعبث به :

— إنه بين يديك .

فضحكت ضحكة ساخرة ورفعت الكتاب تنظر فيه .

وبادر محسن فذلها على إحدى صفحاته وقال لها :

— إقرئي هذا !

فقرأت :

« إني أريد ،

أريد أن أحب ،

ولقد زين لي « الحب » أن

أحب ..

فأبيت من جهلي أن أصغى

إليه ..

فقبض من فوره على قوس

من ذهب ،

ودعاني إلى القتال .

فلبست له الحديد ،

وأمسكت بالرمح والدرع ،

ونفضت كأني « آشيل »

أنازل « الحب » .

فسدد إلى سهاماً ،

حدث عنها فطاشت .

ونفدت سهامه ،

فتقدم إلى بتقد غضباً ،

وهجم على فاخرق جسمي ونفذ

إلى قلبي .

فانهزمت .

يا لها من حماقة أن أتقى

بدروع !

أي سلاح خارجي ينتصر

على « الحب » إذا كانت المعركة

قائمة داخل نفسي !

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقي جامداً

على السطور ، وكان الفتي قد دنا منها يقرأ معها من صفحة

واحدة . فأحس شعرها المعطر قد انتشرت خصلاته الذهبية
على وجهه كما تنتشر أشعة القمر على الكائنات ، ولم يذكر الفتى
شيئاً عندئذ ولم يفتن إلا إلى وجه سوزى الناعم الحار قد لاصق
وجهه ، وكأنها تقبله ، نعم ، إنها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب
فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الآن لا وهم فيها ولا غموض ،
ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك ...



آه لأولئك الخياليين عندما يعطون فجأة : « الحقيقة » !
نعم ، فجأة . أى قبل أن يترك لهم زمن يسبغون فيه على تلك
« الحقيقة » أردية الخيال الموشاة ! إنهم يتلقون جسماً غريباً
ومادة عارية لا يعرفون ماذا يراد بها . إن « الحقيقة » عملة
لا تجوز فى مملكة « الأحلام » .

لم ينم محسن تلك الليلة . فقد كان وقع ما حدث ذا دوى
فى نفسه . وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه أندريه يقص عليه
كل شئ .

وابتسم الفرنسي لرواية الفتى وقال له :

— رأيت أنها فتاة ككل الفتيات ، وعاملة كآلاف
العاملات ! تلك التي أسكنتها قصر آمن قصور ألف ليلة وليلة ،
وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب الناس المتدفقة تحت
شباكه . آه أيها الصديق ، اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً
مما كنت تتصور وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة
لا تحتاج إلى كل هذا الوقت ولا إلى كل هذه الخيالات
والتأملات !

فأحس الفتى إحساساً من يهوى إلى الأرض ، وكأن
قيم الأشياء في نظرة قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد
تجردت من غطاءها ، فبدت كتمثال مصبوب من السخف .
وشعر محسن بفراغ في مادة نفسه ، لا يدري بعد اليوم بماذا
يملؤه . . .

وترك الفتى صاحبه وانصرف مطرقاً ، دون أن ينبس
بحرف . . .

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها . ولقد هبط (آدم)
الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر ومادة أخرى وهكذا
كان يستيقظ محسن بعدئذ كل صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح
عينيه ، فاذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت
وجهه ... وصوت عذب يقول له :

— أوفوار !

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطر على خشب الحجرة
وتتجه إلى الباب في شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب يفتح
ويغلق . ثم لاشيء . انها ذاهبة إلى عملها ...

لم يكن لمحسن بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار في النوم
إلى الضحى ، فلم يعد به حاجة إلى التبكير ، ولم يعد صوت
غنائها هو الذى يوقظه . إلى أن يكل من النوم فينهض في تراخ
ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج إلى مطعم (الأوديون)

بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك التذاكر في منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود إليها ساعة العشاء في ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها إلى سينما الحى . فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات في الظلام ، كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات . وتذكر محسن ذات مرة ملاحظته الأولى يوم رأى قى فرنسياً يعانق فتاة في الطريق ، لقد حسب يومئذ أن في ذلك امتهاناً لقداسة الحب . أترأه يقول ذلك الساعة ؟ لا . ما الذى تغير ؟ لا شئ . إنه يجب دائماً ، ولكن طعم (الحب) هو الذى تغير . التفاحة هى التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جديدة ! تفاحة (الأرض) ... حلوة لكن داخلها الدود ! ولم يكن محسن يطيق إبطاء سوزى خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبسم لأحد معارفها وهى تحنى رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغام (الأترمتزو) و (رقصة الفراندول) ، ولكنه يراها فى نومه تعانق رئيسها (هنرى)

الذى عرف منها بعض أخباره ، ، أو يراها تقبل شاباً زنجياً
تلك القبلات الملهبة ، فينهض منزجاً مضطرباً يود لو يمزق
جسدها بأسنانه .



وجلس محسن ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم الذى
يؤممه ممثلوا الأوديون وفنانوه ، ومضت ساعة مجيئها ولم تظهر
بالباب ، فاخفى الابتسام من وجه الفتى وذهبت رغبته فى
الطعام ، وود لو ينهض ويخرج ويركض هارباً حتى تأتى
ولا تجده ، وخامرته الشكوك . ولم يستطع أن يقبل فى أمرها
عذراً . وحكم عليها فى نفسه حكماً قاسياً ، وتمنى لو يحطم شيئاً .
حقيقية يدها ، أو طبقاً من هذه الأطباق . ولكن الباب فتح
فى تلك اللحظة وبدت سوزى مسرعة إليه ، وكأنها قرأت
فى وجهه كل ما فى نفسه فبادرت تقول :

— أبطأت عليك قليلاً ، أردت أن أحصل على تذكرة
دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة ... لا أقدمها إليك !.

وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من الكرتون أعطتها
إياه ، فأخذها . . . ولكن الهدوء لم يستقر في نفسه . فقال
لها في صوت حار :

— انى أحبك إلى حد مخيف . . . إلى حد الرغبة فى أن
أنهال عليك ضرباً .

فقالت مبتسمة وهى تفحص قائمة الطعام بعينها :

— هذا مخيف حقاً . ماذا طلبت من الأكل ؟

— انى أحبك ، أحبك كثيراً .

قالها كالمخاطب نفسه وهو يفحص بعينه خصلات شعرها
المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر . فطلبت
الفتاة ما اختارت من بين الألوان . والتفتت إلى الفتى الساهم .
كما التفتت إلى الخادم ، وصاحت به :

— عجباً ! ماذا تريد أن تأكل ؟

فرفع الفتى بصره كمن ثاب إلى رشدته وتناول بطاقة
الطعام وهو يقول :

— ماذا آكل ؟ لست أدري ؟ أشيرى على أنت فانى
لا أستطيع أن أعصى لك أمراً !

فطلبت له مثل ماطلبت لنفسها . وانصرف الخادم .
والتفتت هى اليه :

— ماذا بك ؟

— لاشيء . ما أشد الحرارة داخل هذا المكان ! انى
أحس العطش ...

وسكب قليلا من الماء فى كوبه ، وجرع منه جرعتين ،
وقالت سوزى وهى تبحث عن كوبها الذى لم يوضع بعد على
المائدة :

— إننى أيضاً أحس العطش ...

وتناولت كوب محسن وشربت من الموضع الذى شرب
منه الفتى ، وهى تنظر إليه باسمة . ورأى الفتى ذلك منها . فقال
فى صوت خافت نارى متقطع كأنه حمم متطاير :

— بى .. رغبة هائلة .. فى أن .. أقبلك الآن !

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل . ونظر محسن خلصة إلى
من حوله في المحل . ثم مضى يقول :

— لا أستطيع ، فلا أقنع الآن مرغماً بالشرب من الموضع
الذي مس شفتيك . . . كما فعلت معي .
ورفع الكوب إلى شفتيه . . .

الفصل الرابع عشر

عاش محسن حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب وينام في « الحقيقة » . ولم يفتن إلى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة . ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبايس شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها الخمرى النحاسى فى لون الأجسام الرخامية التى عانقتها الشمس على شاطئ البحر . ذلك اللون المحبوب من الباريسيات فى ذلك الوقت . نعم ، لم يعد البياض الناصع لون السحب هو المثل الأعلى ! إنما هى الحجرة الحارة لون الصلصال المحترق !

وتلاقى محسن وسوزى على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين ، فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة ، وقد جاء لتمثيل فيها الممثل الشهير « دى فيرودى » .

وكان الفتى باسم الشجر ، منشرح الصدر ، يلتهم طبق « البفتيك » فى نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا وابتمت قائلة :

— أرى أن لك اليوم شهية للطعام !

— إن « البفتيك » لذيذ . ولكنى مع ذلك ... مسرور
لسبب آخر .

— ما هو ؟

— إني مدعو إلى الحفلة الأولى فى ثانى مسرح بياريس !
إنها المرة الأولى التى يقع لى فيها ذلك ... وهذا بفضلك ..
إنى فخور بك !

— هذا شىء لا يدعو إلى الفخر ! ..

— لا .. إنك ..

— لا تقل شيئاً ... كل بغير أن تتكلم ، يا بىغائى الكبير !

— آه ! بىغاؤك الكبير ، كم أغبط ذلك الآخر الصغير !

إنه فى قفصه فوق نافذتك أكثر حرية منى بين يديك !

— قلت لك لا تتكلم حتى تفرغ من طبقك . إنى أعلم أن

لأشياء يذهب شهيتك دائماً مثل الكلام على المائدة ! استمع
أنت ، وأنا أتكلم ...

— نعم ، تكلمى أنت ...

وعكف محسن على طعامه ، وأرادت سوزى أن تفتح
فها بالحديث ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان جليان ابتسما
للفتاة فى تحية من رأسيهما ، وجلسا إلى إحدى الموائد ، وقد
هرع إليهما مدير المحل وغلبانة ، ورأت الفتاة علامة الاستفهام
على وجه الفتى فأسرعت تقول له هامة :

— أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟

— من هو ؟

— مسيو « دى فيرودى » نفسه .

فرفع محسن رأسه ينظر إليه فى عجب وإعجاب ثم قال
هامساً :

-- هذا « دى فيرودى » !

-- إنه مثال الوداعة وطيب الخلق .

— ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

— عجباً ، ألم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلفان » !

— « سيلفان » العظيم !

ونظرت سوزى إلى طبق محسن ، ثم قالت فى الحال
بلمهجة الأمر :

— والآن ، الكلام ممنوع يا بىغائى العزيز !

— نعم .. تكلمى أنت ...

وغاد الفتى إلى الأكل ، وجعلت سوزى تتحدث !

— أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجسد طهى

« البويايس » ؟ وأن مسيو « هريو » وزير المعارف وهو

الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لا يستمرىء أكل (البويايس)

إلا من صنع (مدام) سيلفان العجوز ! اسمع هذا : فى الشهر

الماضى ...

ولم تتم . فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسى جميل الطلعة ،

ما كاد يقع بصره على سوزى إلى جانب محسن حتى تغير وجهه ،

وما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها وانقلب

كل شىء فيها رأساً على عقب ، وشعر محسن فى تلك اللحظة

أن مصيبة نزلت به ، لا يدري بعد ماهي . وجلس ذلك الشاب إلى خوان قريب ، ووجهه في وجه الفتاة ... لكنه أطرق وجعل كأنه لا ينظر إليها ، ووضع عينيه في (قائمة) الطعام ... وأطرقت سوزى كذلك . وكانت قد فرغت من الأكل فلم تدر ماذا تصنع . وقلق محسن فسألها :

— ماذا دهاك ؟

فلم تجبه ، ولم تلتفت إليه . وأومأت إلى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له :

— مجلة (الأليستراسيون) من فضلك !

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصورة التي طلبتها . فتناولتها ونشرتها بين يديها وجعلت تتأمل صورها في صمت . كأنها غير حافلة بوجود محسن إلى جوارها . وأحس الفتى منها ذلك . فغلى الدم في رأسه وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة :

— أهذا هو صاحبك (هنرى) ؟

فلم تجب . فمضى يقول :

— لماذا تسكتين الآن عن الحديث معي ؟

فلم تجب . فقال :

— أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة

وهذه الصورة ؟ !

فلم تجب . فقال :

— تريدان أن تفهميه في بساطة أنى إنسان لا خطر له

عندك ، وأنتك تتناولين معى العشاء عن غير رغبة أو سرور .

فلم تجب . فقال ذاهب الصبر :

— وبعد ؟ ألا تقولين كلمة ! لقد قضى الأمر إذن ولم

أعد ببغائك العزيز ؟ وأنت ماعدت تحرصين على شهيتى للطعام

أو الشراب ، والاقبال على تحدثنى كما كنت الآن تفعلين ؟

فلم تجب ، ولم ترفع رأسها ومضت تقلب الصور فقال

في غضب مكثوم ساخر :

— ثقي ان خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع انك تفضلين

قتل الوقت بمطالعة المجلة على الحديث مع مثلى . نعم ، لقد فهم
الآن أنى لا أساوى شيئاً فى نظرك !

فلم تقل شيئاً . فقال :

— لعلك تريد أن يفهم أكثر من ذلك ، فىرى أنى لست
أكثر من معجب مفتون من أولئك المغفلين الأجانب الذين
ينفقون على الغانيات ويتقبلون فى رضا إعراضهن وإهمالهن
وازدراءهن !

فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :

— إنك تحملىنى من الازلال ما لا أطيق ! نعم ، ينبغى
أن أقول لك إن ما تصنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى
يعينى من الأمر هذا الحب الهائل الذى ظهر فجأة الساعة
فسحرك ، وجعل منك تمثالا من الشمع . فأنت حرة فى
شئون عواطفك . ولا يدفعنى إلى هذا الكلام ألم أو غيره ،
حقيقة أن حالى الآن لا يدعو إلى الاغتراب والارتياح ، ولكنى
أنا أيضاً حر فى شئون عواطفى . ما أسألك عنه الساعة هو

أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى ، وأن تنقذى على الأقل
المظاهر ، وأن تعاملينى فى شىء من البر والكرم ، وأن لا تجعلينى
ذليلا أمام حبيبك أو خليلك . إلا إذا كنت تقصدين ذلك ،
وكان هذا هو السبيل الذى ترتفعين به فى نظره وتصلين به
إلى عنايته وحسن التفاته . وبعد؟ ألا تقولين شيئاً؟ أمصرة
أنت على هذا الصمت المبهين؟ إذن . . ليس فى وسعى الآن
مع الأسف العميق إلا أن . . .

وأوماً إلى الخادم فجاء ، ودفع إليه سريعاً قيمة
« الحساب » كله ، ثم نهض قائلاً :
— وداعاً . . يا سيدتى !

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها ، وخرج من المطعم
خروج آدم من الجنة . .

الفصل الخامس عشر

قبع محسن في حجرته ، مهيض النفس ، جريح القلب
وجعل ينظر إلى كل شيء حوله كمن ينظر إلى شيء غريب . نعم ،
لقد فقد هذا المسكن معناه . وهذه النافذة . ماعادت تشرف
الآن على ذلك الهناء . . . وإن صوت الغناء العذب المتصاعد
من النافذة السفلى ليس الآن غير طعنة طويلة تنفذ إلى سويداء
فؤاده . فهي إنما تغنى دائماً للآخر . إنه مازال يسمع في
الصباح عين الأغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمي

لا يعرف أبداً قانوناً »

هذا صحيح . وهو الآن يلقي جزاء اللعب مع ذلك الطفل
البوهيمي ! إنه لم يعد يسمع حتى صوت نداءها للبيغاء الصغير .
إن إسم « محسن » قد اختفى من فمها ، على الإطلاق ، وخطر
للفتى أن ينظر إلى قفص البيغاء فوق نافذه . فأطل من

نافذته فأخذه الروع . لم يجد قفصاً ولا بئغاء ، أين العصفور؟
أين « محسن » الآخر؟ لا يدري مصيره هو أيضاً ، لعلها قذفت
به كذلك إلى عرض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة . .
ومرت ساعات ، ومرت أيام ، ومحسن يعيش في ألمه ،
كما يعيش الجريح في دمه . وخطرت له خواطر وطافت به
هواجس . وانتهى من تأملاته الطويلة إلى عزم : أن يراها
ويحادثها مرة أخيرة . آه للحببين المدحورين ! كم يعلمون الآمال
على ما يسمونه « المحادثة الأخيرة » ! إنهم لا يريدون أن يفهموا
أن الشرح والمنطق والتفسير والإيضاح وكل وسائل الفكر
والعقل أشياء لا تفيد في مسائل القلب . وأن النعيم والجحيم
إنما تفتح أبوابهما وتوصد على شبه ألفاظ سحرية لا معنى لها :
« افتح ياسمسم ، اغلق ياسمسم » !

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها . وعلم أنها في
حجرتها ، فتجلد وذهب إلى بابها وطرق طريقة خفيفة خجلة .
ففتحت . وما ان رآته حتى عادت فأغلقت في وجهه الباب

في هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة ..

فرجع الفتى أدراجه أحمر الوجه من أثر تلك الصفعة .
وجلس إلى مكتبه وأخفى رأسه بين كفيه ..

ومرت عليه ساعات أخرى . وفكر مرة أخرى :
لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها ..

وحاول في اليوم التالي أن يعيد الكرة . فطرق بابها
مرة ومرة ؟ فلم تفتح له . وتوسل إليها أخيراً من خلف الباب
ان تصغى إليه خمس دقائق . يخرج بعدها ولا يعود . بل إنه
يعدّها بترك المنزل كله والمضى بامتعته الى حيث لا تعلم ، لكنه
لم يتلق جواباً . فهي سماء صماء لا يصل اليها دعاء . وهو عبد
طريح على ارض الشقاء قد ارتكب خطيئة لا غفران لها
ولا يدري ماهي ؟ !

وحدثته نفسه احياناً بالثورة . وود لو تنقلب كل ذرة
من ذرات حبه الى قنابل تتساقط محطمة ذلك الشيء الجميل
الذي كان يسميه « سوزى » ولكن رباعية من رباعيات

الخيام وقعت فجأة تحت بصره وهو يقلب الكتاب بين يديه
لا هيأ حالماً :

« إذا أردت أن تسلك

طريق السلام الدائم

فابتسم للقدر إذا بطش بك

ولا تبطش بأحد ! »

نعم ، فليبسم ، على الرغم من كل شيء . حسببه أن قد
ظفر بلحظة من ذلك النعيم الذي كان يحمله . نعم ، ان تلك المرأة
استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة
في كيانه . . . فليكن من أمرها ما يكون ، فهو الآن يعلم بفضلها
مالم يعلم . . . « جنة الأرض » هي التي أعطته مفاتيحها ، وأذاقته
رحيقها ، ووضعت شفيتها إلى جوار شفتيه على حافة ذلك
الكوب البلورى من الكوثر الأرضى . . .

لكنها قد طردته ؟ فما مصيره ؟ أيعود إلى السماء ؟

وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على

نافذتها السفلى فوجدها موصدة ، ولكن الضوء ظاهر من
زجاجها ، فهي في حجرتها ذلك المساء . لكن كيف السبيل
إليها ؟ إن بابها المغلق في وجهه لا تخترقه صلاة ولا يفتحه
بخور . إنها الآن في حجرتها كاله في سماءه ، قد احتجب بالسحب
واعتصم بالشهب ، فلا يدرى أحد كيف يدنو منه . وتأمل
محسن السماء طويلا من نافذة حجرته العالية وقال منتهدا :

« آه أيتها السماء السابعة ،

إني أراك وأحادثك ،

من هذا الطابق الخامس ،

أما فاتتني التي كانت دانية مني ،

فهى نائية ، نائية الآن عني ،

آه ، ... لو أنها كانت فقط

في السماء السابعة ؟

لكنها ... في الطابق الرابع !! »

الفصل السادس عشر

سيدتى . . .

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب . إطمئنى .
لن أطلب فيه شيئاً . ولن أرجو منه شيئاً .. إني لست أخدع
نفسى ، ولست أجهل حقيقة الأمر . إني منذ دخل المطعم
مسيو « هنرى » ولحظت كيف تغير وجهك ، فهمت فى الحال
أن ساعاتى عندك أمست معدودة . ولعل كلماتى التى وجهتها
إليك ذلك المساء لم تكن إلا صيحات التشبث بالحياة . فان
كنت قد جرت فى القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فانى
أطمع دائماً فى أنك تصفحين كما صفحت ولا ريب الملكة
الجميلة « سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » يوم دعتة
إلى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش وأقيمت الموائد ،
وقدمت (أطباق البفتيك) . وتلاقت الشفاه على الأكواب ،

وفاح عطر الـ « هوييجان » من أعطاف الشيا ، وانتشرت
 خصلات الذهب على الوجوه إلى أن لاح الصباح ، فتغير
 وجه الملكة الجميل . ووضع الأسير في الأغلال ، ومشى به
 إلى الموت . وهو ذاهل مازالت في رأسه بقية من نشوة الليل .
 إن الذى كان يلفظ من غير شك وقع الأمر على ذلك
 الأسير انه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاذ سيستقبله
 على باب مخدعها فى الصباح . فهو لم يغتر . ولم يغيب عن عينه
 السكرى سيف المنية يبرق من خلف الكؤوس .
 ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير
 ذلك كل شئ عندهن مستتر مقنع ، (فهى) تضع على وجهها
 ذلك القناع الحريرى الأسود الذى يلبس فى (المساخر) ،
 وتجتر خلفها (أسيرها) وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزتين ،
 تزهران فى السواد كأنهما نجمان بازغان فى صدر الليل ! وتسير
 به إلى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ، ويلتصق
 فيها الوجه الحار على الوجه المورد ، ثم تجذبه إلى ضجيج
 الناس والطرقات . وقد خيل إليه فى هذا الحلم أنهما فى (فينسيا)

أيام (الكرنفال) وكأن كل شيء حولهما راقص ، وكأن على
رأسيهما تلك التيجان من (الكرتون) الفضى الذهبى .. وكأن
حبال الورق (السربنتان) الخضراء الحمراء تشد جسميهما ،
أحدهما إلى الآخر فى رباط ، خيل الى الأسير وهو غارق
فى أحلامه أنه وثيق لن ينقطع ، ولبنا هكذا مرتبتين بشك
(الحبال) يذهبان به فى كل مكان : فى المطاعم حيث (البورجونى)
المعتق ، وفى السينما حيث القبلات فى الظلام ! عجبا ! أكل
هذا لم يكن حبا ؟! من قال ذلك ؟ ومن أذن للأسير فى أن يشك ؟
حقيقة أنه لم ير كل ما خفى من وجه (الجميلة) فهى لم تخلع بعد
قناعها . لكن ماذا يهم ؟ انه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين
اللامعتين !

وجاء الصباح . وطلعت الشمس . وغارت النجوم
وأفاق ذلك الحالم ، فلم يجد حوله أحداً ، غير كئاسى الطرق
يكمنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ، وأكوام
« حبال » الورق ذى الألوان ؟ التى كان يحسبها قديرة على أن

تربط الأجسام طول الأعوام ، أين ذهبت « الملكة » ؟
لا يدري ! كل ما بقى منها هو قناعها الحريري الأسود ملقى تحت
أقدام المائدة .

آه ياسيديتي ، لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا لم تخبريني « بشروط »
اللعب من أول الأمر . لو أنى عرفت هذا الوضع للأشياء ،
لهان كل هذا . ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شىء
على سبيل الجد .

ان من السهل على عقليتي الشرقية البسيطة أن تعيش فى
الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وانها لتأبى أن تؤمن بانها
الأشياء بمثل هذه السرعة !

لقد كنت أنت من غير شك تعلمين أن هذا كله ليس
سوى عبث لن يدوم طويلا . ويوم كنت أعتقد أنا أنى انما
أحيا فى جنة الأرض الجميلة ، كنت تعرفين انى انما أحيا فى مهزلة
مبتذلة سخيفة .

لقد هبطت الأرض صافى النفس نقى القلب ، كما هبطها

ذلك الاله الهندي « ماهادوفا » الذي تروى خبره الأساطير
الهندية : لقد نزل إلى الأرض كرجل من الرجال ، يرقب
أعمال البشر بين البشر . فقابل فتاة جميلة حياها فخيته ، وسألها
عن أمرها ، فقالت انها راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت
« صفاقاتها » بين أصابعها ورقصت له ألف رقصة ورقصة .
ثم ركعت أمامه وقدمت له أزهاراً ، وقادته إلى مسكنها . وهناك
جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن قلب نادر
نبيل على الرغم مما يحيط به من أدران . وعاشا في سعادة الأرض ،
الزمن الذي تسمح به سعادة الأرض ، وفي ذات صباح
استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتاً . فبكته بكاء
مرراً . وجاء الناس والكهنة وأحرقوه كما يفعل الهنود بموتاهم ،
فأسرعت الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه في اللهب ، فأصعدها
معه إلى السماء !

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية اليوم فانها
تفعل غير ذلك . انها أعقل من أن تلقى نفسها في اللهب من أجل

الذى تحب . أما من لا تحب ، فهي تعرف كيف تجعله هو اللهب
وهو الحطب الذى يلقى فى المدفأة ، كي ينشر الحرارة فى مسكنها
المغطى بالجليد . خيل الى ياسيدتى حقيقة أن ريحا باردة قد
هبت على ما كان بينك وبين مسيو «هنرى» فى يوم من الأيام .
وكان ينبغى أن أدرك أن قلبك يومئذ كان فى حاجة إلى الدفء ،
وكان ينبغى أن أعلم أن المكان المعد لى انما هو «الموقد» ؟
وان هذا الوقود «الحى» ينبغى ان يبقى حتى يحترق بأ كمله ، ويصبح
رماداً ، وتنتهى مهمته فتكنس ذراته وتطرح فى الهواء !
لست أحب ياسيدتى ان اتهمك « بالأنانية » ، ولكن
عتبى عليك لا يعدو أمراً واحداً صغيراً : كان يحسن بك
أن تخبرينى بمهمتى حتى أحترق على علم . وافيد الغير عن رضا .
ولكنك شئت ان تسخرى بى من تحت (قناعك) حتى تكون
لك المتعتان .

لا تحسبى أنى حائق عليك . على النقيض . إن من حقك
أن تصنعى الذى صنعت ، فالحياة عندك متاع . وإنى أحب لك

السُرور من أعماق قلبي ، وإني لست نادماً على ذلك القلب
الذي قدمته إليك في احترام ، فألقيت به في المدفأة . إنه لك
على كل حال . إنه كان لك تفعلين به ما تشائين . وقد فعلت
به ما شئت . إنما الذي يؤلمني الآن : هو حياتي بعد ذلك . لقد
أسرفت في الخيال . فجعلت منك كل جنتي ، وعشت هذا الخيال ،
وليس من الهين على أن أعيش من فوري في شيء آخر . اني
مثل ذلك (الملهود) الذي طرد حديثاً من حظيرة (الإيمان)
فتشرد بعد ذلك (بقلبه) لا يدري أين يسكنه ... مثله مثل
صعلوك من صعاليك الحياة ، إذا طلع النهار انساق إلى ترهات
العقل ، حتى يحن الليل ، فيأوى (بقلبه) إلى حيطان (العقيدة)
ينطرح فوق الأفاريز .

شأنى الآن هكذا . اعلم أنك الآن شيء بعيد عني بعد
النجوم ، ومع ذلك مازلت أعيش معك ...

منذ تلك الليلة الحاسمة في المطعم إلى اليوم ، وأنا لا أنام
قبل أن أسمع صوت المصعد يقف على (طابقك الرابع)

واصغى الى صوت قدميك الصغيرتين تخطران فى ذلك الممر الطويل إلى أن يفتح بابك ويغلق فأعلم أنك قد عدت، فأسرع إلى نافذتى أنظر إلى الضوء المنبعث من زجاج حجرتك ، وأظل على تلك الحال ساهراً حتى تطفأ أنوارك وتنامين ، وعندئذ تنام عيني، كأنما أنت التى تأذنين لها فى النوم . لا تحسبى ما أقول مبالغته منى . لا . إن كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبنا أذنى مراناً غريباً ، على سماع أصوات المصعد والخطوات والأبواب، مهما دقت ومهما اختلطت . إني بأذنى أستطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات . إني لم أر وجهك منذ تلك الليلة لأنى لم أجرو على النظر إليك . ولكنى أقنع بعالم الأصوات التى تصدر عنك وتصلنى بحياتك اليومية ؛ العجيب فى الأمر أنى أعلم أن كل هذا حق غير مجد . ومع ذلك أفعله . وأعجب منه أنى أحصى عليك خفية كل حركاتك ، فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما ينبغى . لست أدرى أين ؟ والليلة التالية عدت مبكرة ، لست أدرى لماذا ؟

معذرة ، هذا السلوك المعيب منى ، إنما أنا رجل شريد طرد
من قصر « الحب » السحري ، فهو يلجأ فى يأسه إذا جن
الليل إلى الحيطان والأفاريز ! ولقد فكرت بالفعل فى ترك
هذا النزل . والانصراف إلى شأنى ، وربما فعلت ذلك فى يوم .
قريب . لكنى حتى الآن لم اقو على ذلك .

إنى أفهم الآن موقف آدم عقب اخراجه من جنة السماء .
انى أتخيله قد لبث بغير حراك فى الموضع الذى هبط فيه ،
ومرت به ليالى وأيام وهو ينظر الى السماء ، يرقب كل حركة
فيها . إذا رعدت فهى صوت أبوابها تفتح لتناديه من جديد ،
وإذا لمع البرق فهى ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة ،
وإذا تساقطت الشهب فهى همسات غضب مازال قائما ، وإذا
استدار البدر فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم ، وكر
الزمن و آدم يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك
المهبط من الأرض يمسح وجهه بأعتاب النعيم . الى أن انتزعته
غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وارغمته على

النهوض ، فقام يدب في الأرض ويعيش كما تعيش الأحياء
من المخلوقات .

إني لست أعرف كم لبث آدم في الجنة من زمن ، وإني
لا أتوق إلى معرفة ذلك . ولكن الذي أعرفه على التحقيق :
ان جنتي أنا دامت أسبوعين ، حسبتهما حساباً دقيقاً ، بالساعة
والدقيقة . منذ الليلة التي ذهبنا فيها معاً إلى مطعم « بوكاردى »
الى الليلة التي خرجت فيها وحدي من مطعم « الأوديون »
اسبوعان من النعيم ، هما كل زادي ، وكل كنزي .

وبعد ... فاني قد اطلت عليك كثيراً . وليس من حقي
ان اسلبك كل هذا الوقت لتطالعي حماقاتي . وليس من حقي
كذلك ان انتظر منك رداً على هذا الخطاب الطويل . فحسبي
منك برا وكرماً ان تقرئيه في ساعة فراغ ، انه على أى حال
نوع من اللهو ، وهو على كل حال صائر الى « المدفأة » ..!
وإن كنت أرى ان « الشتاء » قد انقضى فقد ظهرت عندك
بشائر الربيع . امس رأيت على نافذتك آنية يبسم فيها زهر

« الكرز » فى أغصانه الرفيعة الأرجوانية . فذكرت أغنية
(سان سانس) :

الريـع جاء

يحمل الرجاء

إلى قلوب العشاق

ما أكذب هذا الشعر ! هذا الربيع ، على غير أمل
الناس فيه انما هو الذى جاء ينتزع الرجاء . . . ومع ذلك فانى
استقبل بوجهى نسامته العاطرة ، ولا أرجو منه شيئاً كما يفعل
الآخرون . انى أخشاه كما خشيه (حافظ الشيرازى) :

حـبى نـسيم الـريـع

قادنى الى الصـحراء

لقد حمل الى النسيم عطـره

لكنه أخذ منى راحتى

إلىـهى ! لا تحمل هذا الجمال

الذى لا قلب له

وَقَرَّ أَشْجَانُ الْهَائِمِينَ بِحَبْه !
لَقَدْ جَشَوْتُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي
عَفَرْتَهُ أَقْدَامُهَا

لَكُنْهَا لَمْ تَدْنِ مِنِّي
لِقَدَارِ تَفَعَّتْ تَوَسَّلَاتِي وَتَنَهَّدَاتِي
فَأَزَعَجَتْ نَوْمَ الطُّيُورِ وَالْأَزْهَارِ
لَكُنْهَا لَمْ تَفْتَحْ عَيْنَهَا
بِالْأَمْسِ مَسَّ الْكُوبِ شَفَتَيْهَا
وَقَالَ : أَنَّهُ يُعْطَى الْحَيَاةَ !
فَقُلْتُ : لَا بَلْ هِيَ الَّتِي آعَارَتْهُ الْحَيَاةُ
وَمَعَ ذَلِكَ ، لَوْ أَنِّي أَمَامُهَا
مِتْ مُحْتَرَقًا

لَمَّا اطْفَأَتْ لَهْبِي بِأَنْفَاسِ شَفَتَيْهَا
مَا أَصْدَقَ هَذَا الشَّعْرَ ! كُلُّ كَلِمَةٍ فِيهِ كَأَنَّهُا عَاشَتْ حَيَاةَ آدَمِيَّةٍ !
أَخِيرًا اسْتَأْذَنَكَ فِي طَرَحِ الْقَلَمِ ، فَإِنَّ الْفَجْرَ قَدْ بَدَأَ مِنْ

من النافذة ، وأخشى ان تغضبي لمجرد اني اختلست طيفك ليلة ..
ارجو مرة اخرى ان تغفري لى هذه الشرثرة . فأنا لست خيراً
من « محسن » الآخر فى شىء . أعنى « البغاء الصغير » ! انى لم
أعد أرى قفصه فى نافذتك . فلعله حى يرزق . انى أيضاً حى
ارزق . لقد تحققت امنيتى ، وتساوينا فى عين الحظ والنصيب
« البغاء الكبير » و « البغاء الصغير » . ألا تذكرين ؟ ان
كل ما يحزننى من امر « محسن » الصغير انه هو ايضا ، وقد
أصبح بعيداً عنك ، لا يستطيع هو أيضاً أن يحبك كل صباح
بذلك الصغير المعتاد مردداً :

« أحبك . أحبك . أحبك »

« محسن ... »

الفصل السابع عشر

صديقي . . .

على الرغم من خطابك الذى وجهت إلى فيه كثيراً من اللوم ، فاني مازلت أدعوك « صديقي » . أو لسنا صديقين ، مادمننا نشكو من عين الداء ؟ إني لم استطع اليوم منع نفسي من الرد عليك . بل لقد هممت فعلاً بزيارتك هذا الصباح . غير أن خطابك وما فيه من صواب ، وما جاء به من عتاب ، قد أشعرني بقبح موقفي طول الأسبوعين « المعروفين » . ولقد عدت إلى حجرتي بعد تلاوة كلماتك وأنا حقيقة متألمة . ولقد وددت لو اني لم أعش قط هذين الأسبوعين . إني خجلة . ولا أستطيع أن أقابلك وجهاً لوجه . كيف السبيل إلى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتي ؟

نعم ، لست أنكر ، إني كامرأة تحب بكل جوارحها ، قد كنت حقاً « أنانية » . إني فكرت بالفعل ذات يوم في أمر

تصرفاتي ، وتنهت إلى ما فيها من ضرر وشر ، ولكنني مع ذلك أقدمت على هذا الشر ، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عني . . . نعم ، أرجو أن تثق كل الثقة اني عندما فكرت في كل هذا لم يخطر لي قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل هذا اليأس .

صدقني إني محزونة حقاً لهذه النتيجة . وإني من أعماق قلبي أبدى لك شديد أسفى .

لكن . . . ما عساي أستطيع ان افعل لأنال الصفح ؟
إن آلامك تترك في نفسي ألماً عميقاً . وأرجو منك أن تثق بذلك .

وبعد أتعجب مني ان أمد يدي واصالحك ..؟

سوزى دييون

حاشية — سألتني عن « الببغاء » الصغير ، وقلت إنك

لم تعد ترى قفصه في نافذتي ، هذا صحيح ، إنه ليس عندي
الآن ، فان أمر طعامه وشرابه والالتفات إليه لما يحتاج إلى
وقت لا أستطيع أن أكرسه له ، فسمحت لنفسى ان اهديه
الى « كلوتيلد » حارسة المقاصير ، وقد اوصيتها أن تعنى به كل
العناية ، فكن مطمئناً ؟

« س . . . »

الفصل الثامن عشر

ترك محسن مسكنه في نزل «زهرة الأكاسيا» واستأجر
حجرة في النزل الذي يقطنه صديقه إيفانوفتش وكان الروسي
قد اشتدت عليه وطأة المرض . فلم يشأ الفتي إزعاجه بكثرة
الكلام ، فلزم هو أيضاً حجرته ، لا يخرج منها إلا في الصباح ،
يقطع شوارع الحى صامتاً ثم يعطف على باعة الماء كولات
يوم السوق ، فيشتري « كيلو جراماً » من الأرز وموزة
واحدة ، يعود بهما إلى حجرته حيث يهيء غداءه بيده . ذلك
شأنه أكثر الأيام . فقد نصبت موارده من طول الانفاق في
المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع
حتى تناول الأكل في مطعم الحى الحقير ، إنه الآن يدفع ثمن
الأسبوعين الذين قال إنهما « كل زاده وكل كنزه » واللذين
قالت « هى » : إنهما شيء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها ، وتود
إنهما لم تعيشهما !

ووقف الفتى امام النار فى احد اركان حجرته ، يرقب
فوران الماء فى آنية الأرز (الألومنيوم) ، وهو صامت مفكر
شأنه فى كل يوم من تلك الايام التى مضت كأنها اعوام ، يتبخر
الماء فيصب غيره فى الأثناء . ويتبخر فيصب غيره . والأرز
لا ينضج ، فياً كله آخر الأمر شبه حصى . ما من مرة نضج
معه هذا الأرز . وما من مرة خطر له ان يسأل احداً فى
طريقة طهيهِ ، او يغير هذا اللون من الطعام . لماذا ينمعل ذلك ؟
ليس للأكل الآن مذاق فى فمه . وإن (الكيلو) من هذا
الأرز الرخيص ليكفيه خمسة ايام .

وكان لحجرة محسن الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ مجيئه
ولم يدر على اى شىء تشرف . لا يريد ان يعرف ... إن نافذة
قلبه قد اغلقت . وما من شىء يسترعى انتباهه الآن ، غير
اسعار (الأرز) مدونة على البطاقات فى الحوانيت ، وغير
عناوين الكتب القديمة ينظر إليها معروضة فى المكتاب دون
ان يمسها . وكانا احياناً يلهج فوق غلاف بعض الكتب فقرة

أو عبارة أويدياً من الشعر وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل
منه (نغمة) يظل فكره يرتب عليها (تقاسيم) طول النهار .
وكان يجد في هذا شيئاً من السلوى . غير أن بصره وقع ذات
يوم على كتاب جعل في رأسه هذا القول لشاعر ياباني :

إنما يبني الشاعر سعادته على الرمال
ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول

الجارى

نعم . هنا كل البلاء الآدمى . ألا يمكن للنفس الشاعرة
ان تقيم هناءها على دعائم اثبت قليلا من هذه الرمال التى تغرق
فيها الإبل . وتكتب أغانيها على صفحات ابقى من صفحات
هذا الماء التى تطويها فى شبه طريقة العين انامل الهواء !
نعم هنالك سبيل واحد : لا ينبغى أن نبني شيئاً جميلاً
فوق هذه الأرض !!! . هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها
ومائها وهوائها ! .

وفطن الفقى ، ان هنالك حقاً نوعاً من الهناء قد عرفه

يوما . هو هناء الصفاء . هذا الصفاء الذى لا يوجد إلا فى
الارتفاع ...

وأحس الفتى فعلا كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع
و كأنه يبتعد عن الأرض ، ليعود إلى السماء ، إلى سمائه التى
كان قد هبط منها ...

ولعل « الأرز » عانه على ذلك . فان « الزهد » هو
سلم « الصعود » !! .

واقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقيقير الضئيل فى لذة
روحية ، وبسمة راضية وضاعة ، انارت له مسالك نفسه
المظلم ، وذكرته بسروره فى صباه يوم كان يقتات « بالفول
النابت ، ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح (السيدة
زينب) ...

لم يكن شئ يعكر عليه صفاءه الروحى يومئذ غير حارس
المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق فى عباؤه الثمينة وشعره المخضب

بالحناء وعيونه الكخيلة ينظر بها إلى صندوق (النذور) بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد الغالية . و ثرياته الكبيرة . لماذا كل هذا ؟ إن الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصار حيث كان يتخذ مكانه دائماً ، لا في قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش . وبقيّة تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب والخشوع الزائف . إنما في تلك الردهة الخارجية التي طرح الحصار على بعض أرضها وترك البعض الآخر عارياً نظيفاً . كالنفس النظيفة العارية . كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح السيدة الطاهرة .. وجعل محسن طول يومه هذا يقلب مثل هذه الأفكار وعأوده شوق وحنين إلى المسجد ، أو إلى بيت من بيوت الله . وتذكر الكنيسة . نعم إن فيها أيضاً قد أحس يومئذ عين إحساس الصعود . لكن ، تلك المراسيم والطقوس .. سرعان ما جذبته إلى الأرض لتوقعه في ذلك الحرج الذي وقع فيه ذلك اليوم ...

نعم ، كلها همت روح الانسان بالتحليق نحو الأعالى
كبتها أكاذيب الانسان وأنزلتها إلى التراب ، كل شقاء
الانسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيماً ذا قداسة بغير
أن تلبسه ثياباً مبتذلة مضحكة من حمقها وزيفها وغرورها ؟
لماذا أراد الناس أن يجعلوا (الله) في حاجة إلى السجاجيد
الفارسية يفرش بها بيوتهم . و (السيدة) في حاجة إلى (الندور)
والنصف والشمع ، كأنها لا تستطيع النوم في الظلام . ثم
ذلك (القمقم) الفضى في الكنيسة ، وتلك الأشارات
والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟ حتى (الموسيقى العظيمة) التي
استطاعت أن ترفع الانسان إلى بعض القمم ، سرعان
ما جعلوا لها ثياب سهرة ترتدى من أجْلِها ، وقواعد وتقاليد
لا بد من مراعاتها . وتقلب الأمور على مر الزمن ، فينسى
الناس الأصل والجوهر ويذكرون الفرع والعرض . فاذا
كل التفاتهم إلى ثياب السهرة دون (الموسيقى) . وإذا كل
عنايتهم بالمظاهر والمجاملات دون الإيمان والعبادات .

ولا يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء المتعساء الذين جاءوا حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك .. إلا الهواة (زبائن) أعلا (التياترو) الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى .

إن « الأخلاص » للدين والفن ، يستوجب « التجرد » !
وذكر محسن « بيتهوفن » . وتلك السانفونية الخامسة التي كان قد سمعها . وذكر ذلك الجو العلوى الذى عاش فيه ذلك اليوم . فحدثته النفس بالذهاب إلى « الكونسير » .

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل الموز شهراً بأكمله . لا لزوم للفاكهة . إنه يستطيع أن يكتفى بالأرز أسبوعاً . وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة . وأحس كأن برداً وسلاماً يهبطان قلبه ويضمدان جروحه . إنه الآن يشعر ببعض القوة . ولم يعد يخشى شيئاً . هو الذى كان قد حرم على نفسه ، خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة « الأكاسيا » . تلك التى أجهزت على أمه ذبحاً بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن . . . بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم
بالسحب ضد هذا الحب الأرضي الذي وضع أنفه في الرغام ،
وذهب محسن إلى مسرح « شاتليه » ، فوجد من حسن
حظه (برناجآ) موسيقياً حافلاً : (باريسفال) و (سحر يوم
الجمعة الحزينة) لريتشارد فاجنر ، و (السانفونية التاسعة)
لبيهوفن .

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف
بأعلا المسرح . فما تردد . وكان حريصاً دائماً على اقتناء ذلك
الكتيب الصغير الذي يباع في الردهة ، فان فيه تحليلاً دقيقاً
في أكثر الأحيان للقطع التي تعزف ، وبياناً عن ظروف
وضعها ، ونبدأ من تاريخ مؤلفها فما أحجم عن شراء نسخة ،
وأسرع يتخذ له مكاناً تحت مصباح من مصابيح الكهرباء ،
وجعل يطالع على عجل هذه السطور :

(لقد أراد فاجنر أن يصور بموسيقاه قصة المسيح إذ جاء
يحمل إلى الإنسانية التي نخرت فيها « الأنانية » ناموس « الحب »

الذى يخلصها من الخطيئة . ولقد جاء في خطاب خاص أرسله
فاجنر إلى صديقه الموسيقى (لست) كيف نبتت في خاطره
فكرة تأليف هذه القطعة ، ووصف المشاعر التى أثارتها فى
نفسه ذكرى الجمعة الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان
فى مدينة زوريخ : « لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس
على شمس مشرقة ، فنظرت إلى الحديقة حولى فألفيتها خضراء
تصدح فيها العصافير . فجلست على عتبة البيت أنعم بهذا
(السلام) الذى انتظرته طويلا . وأثر فى نفسى هذا الصفاء
الذى يكشف الأشياء ، فتذكرت من فورى أن اليوم هو يوم
الجمعة المقدس . وعند ذاك خطر لى أن أضع هذه القطعة .. »
وانقطع محسن فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت الأنوار ،
ووقف (المايسترو) ينقر بعصاه الرفيعة نقراً خفيفاً على قمة
مصباحه الأخضر تنبيهاً للعازفين ، وبدأ الأوركسترا يعزف
مقدمة (پارسيفال) :

نعمة ترتفع منفردة أول الأمر لا يصحبها شيء ، كأنما

هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون الكون . صوت فى
عين الوقت إلهى وبشرى . وتمضى تلك النعمة حاملة فى أعماقها
بذور الألحان الدينية التى تتركب منها القطعة ، إلى أن تقابلها
تلك الأقوال المقدسة : خذوا وكلوا هذا هو جسدى ، خذوا
اشربوا هذا هو دى . . ثم يسمع من (الكواتيور) شبه رعدة
مبهمة بين عديد من الأنغام السريعة المتعاقبة ورنين الصناجات
المكبوت ، كأنما هو صوت طليق ممتد يخفت شيئاً فشيئاً تحت
قباب كاتدرائية عظيمة . .

واستمر الأداء . ومحسن ليس على هذه الأرض إلى أن
أشار (الاستاذ) بعصاه إشارة الانتهاء ، وانطلقت الايدى
بتصفيق كأنه الرعد . فتنبه الفتى . وقام الناس يدخلون فى فترة
الاستراحة أو يتحدثون . وبقي محسن واجماً فى مكانه . ولمح
على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين (الكورس)
من سيدات ورجال ينتظمون فى أماكنهم ، ورفع الكتيب إلى
عينيه ليقرأ ما قيل عن قطعة بيتهوفن . ويهيه نفسه للمشول بين

يدى هذا القلب العظيم ، كى يسمع منه ، ويفهم عنه . وقرأ
الفتى هذه الصفحة : (وبلغ فن يتهوفن فى السانفونية التاسعة
غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصوتى ، ولقد أخرج هذا
العمل فى تلك المرحلة من حياته التى ابتلى فيها بالصمم . كارثة ،
جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى أكتوبر ١٨٠٢ على أثر
أزمة قوية من أزومات اليأس تبدو من هذه الأسطر : إلى
شقيقى كارل وجوهان يتهوفن : أتما يامن كنتما تحسبان انى
إنسان حقوق عنيده أكره الناس . ما أظلمكما ! إنكما لتجهلان
السبب الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى . إنى منذ
الطفولة كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما إلى الخير .
إنى كنت دائماً على استعداد للقيام بأعمال عظيمة . لكن ..
لا تنسيا انى منذ أعوام ستة أصبت بداء قاس ، زاده خطراً
عجز الأطباء . وانى ألفت نفسى مرغماً على العزلة قبل الأوان ،
وعلى انفاق بقية حياتى بعيداً عن العالم . ولقد حاولت أن
أتجاهل أحياناً ما نزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى

دائماً بأنى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فانى لم أستطع أن
أتجراً مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال ، صيخوا .
إنى أصم ! . آه كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة ،
كان ينبغى أن تكون عندى أقوى مما عند جميع الناس . حاسة ،
كنت أملكها فيما مضى على أكمل نمو وأدق تركيب وأرهف
شعور ، مما لم يتيسر مثله إلا لقليل غيرى من الموسيقيين : كلا .
لا أستطيع . لهذا أرجو أن تصفحاً عنى إذا كنت اليوم أهرج ،
كما تريان ، هذا العالم الذى كنت فيما سبق أفرح فيه بكل
نفس راضية . إنى لشديد الاحساس بمصيبتى ، وإنى من أجملها
ينكرنى الجميع . لم يعد الآن من حقى أن أنشد الراحة فى صحبة
أخوانى الأدميين . انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ولذات
المناقشات الرفيعة . انتهت المصارحات القوية وتبادل المناجاة
الحارة ، حالى الآن لا يسمح لى بارتياح المجتمع إلا بالقدر
الذى تحتمه الضرورة القصوى . ينبغى إذن أن أعيش مطروداً
منبوذاً . اى اذلال يحرج نفسى أحياناً ، إذ أرى إلى جانبي احد

الناس يصغى إلى انغام مزمار يعزف عن بعد لا يستطيع
ان اسمعها ، او أناشيد راع . لا يستطيع ان اسمعها كذلك .
(يروى احد اصدقاء بيتهوفن انه فى صباح صيف ١٨٠٢
استرعى التفات صديقه إلى راع فى الغابة يعزف على ناي من
قصب الحاناً شجية ، فأبدى بيتهوفن جهداً مرهقاً لسمع شيئاً
فلم يستطع ، ورفق به صديقه فكذب عليه وزعم له انه هو
أيضاً لا يسمع شيئاً لبعد الصوت عنهما ، ولكن بيتهوفن فهم
الحقيقة وغرق فى حزن عميق) . مثل هذه الحوادث كانت
تلقى بى على أعتاب اليأس ، وكادت تغرينى بأن أضع حداً
لأيامى . . . ولكن الفن وحده هو الذى أبقي على حياتى . آه .
إنه ليشق على ترك هذا العالم قبل أن أعطى كل ما أحس داخل
نفسى من مخلوقات لم تزل بعد فى طور التكوين ! . . آه أيتها
القدرة الالهية ! إنك لترین من عليائك ذلك القاع السحيق فى
اعماق قلبى . إنك لتعرفين انه عامر بحب الانسانية والرغبة فى
عمل الخير . يا شقيقى كارل وجوهان . إذا انتهت أيامى وكان

طبيبي الأستاذ « شमित » لم يزل حيا ، فالتمسنا منه باسمي أن
يصف دائي وان يرفق ذلك بصفحاتي هذه ، فلعل الناس بعد
موتي يصفحون عنى على الأقل . أما إساءة كما لي ، فأنتما تعلمان
انى قد صفحت عنها منذ أمد بعيد . . . وكل ما أتمنى الآن أن
تكون حياتكما ايسر من حياتي وان تعفيا عما رزئت أنا به
من متاعب . وأوصيكما أن تعلميا أطفالكما « الفضيلة » فهي
وحدها ، لا « المال » ، السبيل الحقيقي للسعادة . وإني أتكلم
عن تجربة . « فالفضيلة » هي التي كانت كل سندی في محنتي
وإليها وإلى « فني » يرجع كل الفضل في اني لم ألقأ إلى
الانتحار . وداعاً ! وليحب أحكما الآخر ! . . » لقد كان
يتمهون يعيش اذن في ظلام السكون عندما اخرج سافونيته
التاسعة . ولقد احتمل كل ذلك في جلد كما قال في وصيته ولقد
خضع لحكم القدر في شجاعة كما يقول في مذكرات أخرى :
« الاذعان ، الاستسلام ، الاستسلام ، فلنعرف كيف نستخرج
الدرس الخلق النافع من أفدح المصائب والكوارث .. بذلك

نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله ! » .

لم يبق إذن لبيتهوفن من الحياة غير متعة « البصر » عيناه
وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة ، وقد انحصر كل فرحه في
إرسال النظر إلى وديان « فيرفالد » الخضراء ، يهيم في غاباتها
ملتمساً من الطبيعة العزاء ، آملاً أن يجد في صدرها كل قوى
الحياة والخلق ، صائحاً في فضاءها من أعماق قلبه تلك الصيحات
التي وجدت مدونة في أوراقه :

« يارب الغابات ، يارب القدير على كل شيء ، إني أحس
البركات ، وأشعر بالسعادة في هذه الغابات ، هنا كل شجرة من
هذه الأشجار تسمعني صوتك . يالها من روعة أيها المولى
العظيم ! هذه الأحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء
والسلام . هذا السلام الذي لا بد لنا منه لنستطيع ان نتفانى
في خدمتك ! » .

ووقف محسن عن القراءة في عجب وتأثر شديدين !
لكأن غير آي عرفه يهب من طيات هذه الكلمات . إن هي إلا

كلمات صادرة من النبع الذى صدرت منه كلمات أنبياء الشرق .
وأطفئت الأنوار وتكلم بيتهوفن . إنه لا يتكلم بكيفية
الناس . لكنه يقيم من الأصوات عالماً لا تدخله ولا تسكنه
غير الأرواح الخيرة المهذبة . وتحدت أركان تلك السانفونية
ووضعت للأذان والأرواح هيكلًا عظيمًا مشيداً على أعمدة
نورانية ، من أنغام آلية وأصوات آدمية ..

ولم يتمالك محسن . وأخذته رجفة . وتصيب جبينه
العرق نشوة عليا . عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى
جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعانقين

أيها الملايين من البشر

أيها الأخوة ،

أن فوق النجوم أبا

حبيباً إلى كل القلوب ! »

ولبث الفتى مشدود الأعصاب متفصد الجبين فى شبه زهول

حتى عزف « اليجرو » الختامى ، والتقت أصوات الرجال
والنساء بصوت « الأوركستر » .. ، فكأنما أستار السماء قد
انفرجت ، ليصل إلى آذاننا غناء الحور والملائكة مجتمعين فى
جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القبس الالهى . فرح
الأنفس التى تعيش فى « الله » !

الفصل التاسع عشر

نزل محسن الدرج ليخرج كعادته إلى الطريق ، يستنشق
هواء ذلك الصباح الجميل . فرأى باب حجرة صديقه إيفان
مفتوحاً ، وسمع سعاله ، فعطف عليه وضرب الباب مستأذناً .
فأذن له . ودخل الفتى فوجد الروسي جالساً على سريره . أصفر
الوجه . بين يديه كتب ثلاثة .

— كيف حالك اليوم يامسيو إيفانوفتش ؟

— بخير .

— إنك تجهد قواك في القراءة وأنت لم تزل مريضاً .

— اجلس ! ..

قالها الرجل على نحو غريب . عجب له الفتى ونظر بطرف
عينه إلى الكتب وقرأ في دهشة :

— التوراة ، الانجيل ، القرآن !

ثم التفت إلى إيفان :

— عجباً ! انك فيما أعلم لا تؤمن بشيء ...

فقال الروسي كالمخاطب لنفسه :

— أريد أن أعرف كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة

أن تعطى البشرية راحة النفس وأن تغمرها في ذلك الاطمئنان !

نعم . انى لا أؤمن بشيء . وانى أرى أحيانا الموت دانيا منى

وفى يده « خرقة » ليحونى كما يحى رقم كتب بالطباشير فوق

لوحة سوداء ! فأحتقر نفسى وازدرى كل حياة انسانية . آه .

ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة

أخرى مجيدة جميلة . انهم لاشك ينظرون إلى الموت كأنه

عربة « پولمان » فى قطار سريع يذهب بهم إلى نزهة « آخر

الأسبوع » ، .. ان مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الانسانية

الا أنها شيء عظيم . لانها تشغل الكون دائما ، طول الخلود ،

إنهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس !

— ولماذا لا تؤمن أنت أيضاً بالحياة الأخرى يا مسيو إيفان ؟

— آه ! ثق انى أريد . فالرغبة والارادة لا تعوزانى .

ولكن ... أمن الممكن لمثل الآن أن يؤمن بالجنة والنار كما كان
يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء . إنهم كانوا يتقدمون
للذبح ، ويلقى بهم إلى انياب السباع وهم يبسمون ، راضين
مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم ، مصغين إلى
صوت المسيح يقول لهم من عل : « طوبى لكم اذ عيروكم
وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجل كاذبين ، افرحوا
وتهللوا ، لأن أجركم عظيم في السموات ! »

— ومثل ايمان المسلمين في عهد النبي ، فقد حدث في موقعة
« بدر » التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش ، أن مسلماً
ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً . فسمع النبي يقول : « لا يقاتل
اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً الا أدخله الله الجنة » فقذف
الرجل بالبلح من يده ، وقام يصيح : « أمأيني وبين دخول الجنة
إلا أن يقتلني هؤلاء !؟ » ثم رمى بنفسه في أحضان الأعداء ...
— نعم ، يخيل إلى أن مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعرفه
الغرب اليوم . إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان ،

إنما أعطاهما على النحو الذى ذكرنا . فتسلها الغرب وألبسها
أردية موشاة بالذهب ووضع على رؤوسها التيجان المرصعة
بالماس واقبضها صولجانا والجواهر واللباس
الأرضى . إن الكنيسة فى أوروبا كانت فى يوم ما أعظم
مؤسسة مالية ، وأن نظامها الرأسمالى لأدق نظام . وأن ثروتها
الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية وتقوضها إذا شاءت
فى طرفة عين . فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما أعسر دخول
ذوى الأموال إلى ملكوت الله ، لأن دخول جمل من ثقب
إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ! »

— وأين ذهبت كلمة النبى محمد : إني قد أوتيت مفاتيح
خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء
ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة ! ثم قوله أيضاً : « اللهم
توفى فقيراً ولا توفى غنياً واحشرنى فى زمرة المساكين ! » .
— نعم لا شك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء
هم رجال الدين أنفسهم . أولئك الذين كان ينبغى لهم أن

يتجردوا من كل متاع الأرض ويظهروا في زهدهم بمظهر
المنتظر حقاً لنعيم آخر في السماء . لكننا نراهم هم أول من ينعم
بمملكة الأرض وما فيها من أكل طيب يكتنون به لحما ،
وخمر معتق ينضح على وجوههم الموردة ، وتحت إمرتهم
السيارات يركبونها والمرتبات يقبضونها . . . إنهم يتكلمون
عن السماء ، وكل شيء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون في جنة
السماء ، وأنهم متكالبون على جنة الأرض ، هؤلاء هم وحدهم
الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء . إن كل ما بناه
الأنبياء بزهدهم الحقيقي وجوعهم وعريهم الذي اقنع الناس
بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً في العالم الآخر .
جاء هؤلاء فهدموه . . . وكانوا هم أقوى دليل على كذب
مملكة السماء وخير دعاية لمملكة الأرض . وأنسوا الناس
بانغماسهم في هذه الحياة ، ان هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة .
— صدقت في كل هذا يا مسيو إيفان . إن مسلك رجال
الدين قد يشكك عامة الناس . . لكن أنت . . من كان مثلك

على هذه الثقافة وهذا العلم .. إنك تستطيع أن تقيم إيمانك
على لباب الكتب السماوية وحدها بغير حاجة إلى .. أحد ..
— وهذا ما أردت أن افعله أيها الصديق ، منذ ليالى وأيام ..
غير أنى .. ينبغي أن أصرحك .. لم أستطع .. لم أستطع مطلقاً .
— لم تستطع ماذا ؟

-- آه .. لقد فسدت فى رأسى كل تلك الصور الجميلة
للحياة الأخرى ، كما تفسد زجاجات الصور الفوتوغرافية
عند ما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء .. لست أدرى سبباً
لذلك ، يخيل الى أنها الحضارة الأوروية الحديثة ، لا تسمح
للناس أن يعيشوا إلا فى عالم واحد . إن سر عظمة الحضارات
القديمة انها جعلت الناس يعيشون فى عالمين . لقد عرفت تلك
الحضارات « العلم » و « العلم التطبيقى » فالحضارة التى تشيد
الآهرام لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع
ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور
التي تمثل الحياة الأخرى . تلك الحضارات اسمها أنا « الحضارات
الكاملة » . ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطا بالزواج فى طور من

أطوار التاريخ وانتجا مولوداً جديداً : هذه الفتاة الشقراء
التي تسمى «أوروبا» : جميلة رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة
أنانية لا يعينها إلا نفسها واستعباد غيرها ..

وهنا قاطعه محسن قائلاً كالمخاطب نفسه :

— نعم . «أنانية» لا تعرف غير حياة الواقع ، ولا يهمها
شقاء الغير ، ولا تحب الحياة الا في ... الحياة فمضى الروسى
يقول دون أن يفهم ما جال في خاطر الفتى :

— نعم ، نعم . هى كذلك حقيقة . إن هذه الفتاة ترى
المجد كله فى شيء واحد : ان تضع الأصفاد فى أرجل البشر .
وبدأت أول مابدأت بأبويها : إفريقيا وآسيا . أنكرتهما
وحبستهما . وانطلقت فى الحياة لا يحدها حد ولا يقوم لها
شيء . إلى ان انتهى بها المطاف فى بيت من بيوت الليل تديره
وتشاهد فيه شجار السكارى يحطمون الكراسى والكؤوس .
انى أخشى ان تكون أوروبا موشكة على دفع الانسانية إلى
هوة . إنها لشوب احياناً إلى رشدتها وترى مصيرها فتقع فى

أزمة من أزمت الضمير: إنها لتستيقظ فيها الروح أحياناً فتشك في نفسها ويخيل إليها أن مدنتها الخلافة ليست إلا بهر جأ وأن عليها الحديث كله وهو وحده الذى تنبئه به على البشرية فى مختلف تاريخها ليس من حيث القيمة العملية غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ، قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم. ولكنها آخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها إن السكك الحديدية والطيارات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت ، ولكن ما فائدة ذلك ، ولماذا السرعة. ولماذا توفير الوقت. كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط ، مانحن إلا قطرات ماء فى نهر الحياة ، ما حظنا من سرعة التيار واندفاعه إلى البحر ! إنما حظنا الأكبر فى التمثل حول الأعشاب النائمة والسكون عند شواطئ الجزر يداعبنا النسيم ! من الذى استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين جمعوا فى أيديهم الثروات وسموا بالرأسماليين . أما أنا وانت وبقية الآدميين الوادعين فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة على ظهور الجياد أو الأبل.

ننزل في كل مرحلة ننعم بالطبيعة في أشكالها المختلفة وفي أوقاتها المختلفة . نعم كسبنا السرعة ولكن خسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة . إنما اليوم نفرح بكلمة السرعة وننسى أنها ليست سوى إغفاء نقضها في عربة قطار يمرق بنا في نفق مظلم ويوصلنا حقيقة في وقت قليل إلى حيث أردنا . ولكننا لانعرف بعد ذلك ماذا نضع بالوقت الباقي ، فننفقه في الحمق والسخف ، إن الطبيعة لتنتقم ، وإن كل وقت يسرق منها لانجده سوقا تنفقه فيه غير سوق النخاسة الخلقية والانحطاط الآدمي !! كذلك السينما ، كما يقول دو هاميل لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة في العلب أو قصصاً سخيفة تؤثر في أعصابنا تأثير الأفيون . والراديو وما يقدمه من قشور المعلومات وردى الموسيقى . كل شيء في هذه المدينة الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الانسانية العليا وصفاتها الآدمية السامية وقواها الطبيعية الكامنة بتعويدها التراخي والسكسل باسم « الراحة الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والأرواح ، واصبحنا أمام ناس مصنوعين من

« الألو منيوم ». مصيبة المدنية الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى . هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوربي إلى شطرين ، فئة قليلة كل همها جمع المال ، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال في مقابل لقمة . الفئة الأولى لادين لها إلا الذهب ، والفئة الثانية لادين لها اطلاقا ولا شخصية ولا نفس ، لأنها آلات صماء . إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجا إلى ثمان عشرة عملية مختلفة كما يقول آدم سميث ، وإن العامل الواحد قد يقضى حياته كلها في صنع رأس الدبوس فقط ، وآخر في صنع جزء آخر منه ، كذلك الحال في صناعة الأحذية فهي في بعض المعامل الأمريكية تقسيم إلى أكثر من مائتي عملية يخص العامل الواحد منها جزءاً واحداً من عشرة أجزاء كعقب الحذاء معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة التي كان يحسها ويرتاح إليها وهو يصنع بيديه حذاء كاملاً في حانوته الصغير . نعم . حتى متعة الخلق الكامل التي كانت تشعره بأدميته

قد ذهبت، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار،
يخرط أو يطرق أو ينشر جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا
الدبوس أو ذاك الحذاء، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته.
ما الفرق بينه اذن وبين الآلة؛ لافرق. ان الرجل الشرقي مازال
يحس آدميته بالنسبة للشيء الذي يصنعه ويخلقه بيديه، آنية من
الفخار كان أو حذاء أو رداء منسوجاً على نول. أو قطعة
أرض يزرعها ويحني ثمارها. إنه لم ينقلب بعد لحسن حظه
منشاراً آدمياً أو مخرطة بشرية. استمع إلى الكاتب الانجليزي
« ألدس هكسلي » يصف أوروبا الحديثة : « إن أسلوب الحياة
في العصر الحاضر ليدعو إلى الاشمئزاز ذلك ان تطور النظام
الصناعي قد أدى إلى نمو فجائي لتعداد أوروبا، ففي نحو قرن
واحد تضاعف سكانها. ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائي
للجميع. فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء. ونشط
لهذا الجمهور أصحاب الأعمال فأنشأوا صناعة جديدة: هي
صناعة « مادة القراءة ». هذه « المادة المقروءة » لم تكن ولا

يمكن أن تكون مطلقاً غير بضاعة من النوع الرديء جداً .
لماذا ؟ تلك مسألة حساسية : إن عدد الكتاب أصحاب الموهبة
الفنية قليل دائماً . ومن هنا نرى أن الجانب الاكبر للأدب
المعاصر هو دائماً غاية في الرداءة . ولما كان الأوربيون قد
اتخذوا عادة القراءة طول الوقت . وتلك رذيلة ، كعادة
تدخين السجائر ، بل ربما كتدخين الأفيون أو تعاطي
الكوكايين ، فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة
العاشرة . وهذا كله حدث جديد . إذ في الماضي لم يكن الناس
يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ، لكنها كانت من أجود
نوع . ولا ضربن مثلاً بالانجليز ، فلقد كانوا إلى عصور قريبة
يشبون على « الكتاب المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لجون
بانيان . كتابان لا نظير لهما في نبل المعنى وصفاء الأسلوب .
أما اليوم فانهم يشبون على « الديلي اكسبريس » وعلى المجلات
والقصص البوليسية . فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة :
فهو بدلاً من أن يجعل الناس يقرءون قليلاً الآثار الخالدة

قد جعلهم يقرءون دائماً حماقات مخجلة ! ان الفن القديم قد يقصر أحياناً عن الاجادة لانه ساذج أو ناقص ، ولكنه لم يكن يوماً قط مبتذلاً . لماذا ؟ لأن الأقدمين لم تهبأ لهم الاسباب أن يكونوا مبتذلين !

فأطرق محسن قليلاً ثم قال :

— نعم ، ربما كان هذا صحيحاً . إن الاعرابية في خيمتها ، تلك التي كانت لا تعرف ماهى القراءة والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير والأخطل والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغاني مصعب ونصيب وإسحاق الموصلى ، وتطرب للفجر الجميل وتهتز نفسها لنسيم الأصيل ، وتفضل الصحراء بفتتها الطبيعية على سحر القصور الزائف ، إن مستوى الذوق العام وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية لا شأن له بكتابة أو قراءة .

فقال الروسى بقوة :

— على النقيض ، إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة

كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التي روجتها أوروبا وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت العقائد ، قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية فالدهماء التي تعلت تلك الرموز السخيفة ماذا اكتسبت ؟ لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول « هكسلي » ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا إرادة . فها أنت ذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام « ميكروفون » فالدهماء هي الدهماء ، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة وتركها تتصل بالطبيعة لا « محفوفة في علب » الراديو والسينما والكتب ، ولكن الطبيعة الحقيقية ، أمنا الرؤوم ، تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة ، بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين وأصحاب الأعمال الأفاكين . تلك هي نتائج العلم التطبيقي عندما ترك في أيدي الأوروبيين ، وذاك أثره في النفس الانسانية ، أنظر بعد ذلك أثره في جسم

البشرية ، تجد أنه استحالة إلى قنابل وغازات خانقة وطوريب
وغواصات ودبابات إلى آخر ذلك الابداع والتفنن في وسائل
الفتك بأجسام البشر . فالعلم التطبيقى فى الغرب كل محوره
تخليم البشرية روحا وجسما . إن العلم تلك « الماسة » العظيمة
المتألقة لم تضعها أوروبا فى قمة عمامتها لتشع نوراً وجمالاً ،
ولكنها وضعتها فى سن مخرطة بخارية لتقطع بهازجاج ذلك
الكأس العظيم : كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ومادة
جسدها . أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء « الآلة » ومطامع
أصحاب المنافع ، فإن الشرق هو الذى عرفه لذاته كمظهر من
مظاهر العبقريّة الآدمية المفكرة فى تعطشها لمعرفة الحقيقة
العليا . وهنا كل نبل العلم وسمو غايته . هذا العلم الخالص
أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا ، سبائك ذهبية
وأحجاراً كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت
الفتاة ببعضه وجعلته حلياً لهرجها ، وهنا كل جمال أوروبا
الفكرى الباقى ، أمابقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً

تضعها في المصارف ، وصنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم .
ومع ذلك فهي لم تعرف التحلى بالعلم لذاته إلا منذ عهود
قريبة ؛ لا تنس أن أوروبا هي الوحيدة التي أعدمّت في يوم
علماءها حرقاً واهتمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت حرية
الرأى حتى في شئون الأدب والفن . وجعلت من المسيحية
التي تبشر بالمحبة والسلام سلاحاً للفتك أمام محاكم التفتيش .
ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلاً من ذي قبل ، فهي تجيد
إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملاك سماوى .
إن أوروبا اليوم في أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة
مرت بها . ذلك انها قد تنهت إلى أن مازعمته مدنية عظيمة
قد أفلس وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية .
وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها
ولا ضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها
السقوط ممزقة الجسد تحت موائد المعربدين في ذلك الحان
الذى تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الأطلانطي ، ومن

الجهة الأخرى على البحر الأسود. أيها الصديق . إلى الشرق .
إلى الشرق ! فلنرحل معاً إلى الشرق . إن أجمل ما بقى لأوروبا
إنما أخذته عن الشرق . لم تعد حياتي هنا . ماذا نصنع الآن
ههنا ؟؟ حتى راحة النفس لانجدها هنا . إن العودة إلى الهدوء
والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء الصحراء ، هناك نستنشق بملء
رئتيننا . لادخان المداخن ، ولكن رائحة السماء ، هناك لانجد تلك
السحب الكثيفة التي تحول بيننا وبين الله ؟ هلم بنا ، لقد يئست .
إن قليلاً من الأمل كان قد داعب قلبي إذ تذكرت منذ أيام
حكاية عودة الشاعر الفرنسي « كوكتو » إلى حظيرة الكنيسة ،
وأنت لاشك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق . لقد استنفد
كل حياة الفكر والفن ، وعرف المجد الأدبي ، وانغمس في
نهر الحياة اللاهية ، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه الفكر الشارد
وحده بعيداً عن الإيمان . فماذا حدث ؟ تملكه السأم من
الحياة ، وشعر بالنقص في كيانه ، وبالفراغ في قلبه . فضاق ذرعاً
بأيامه ، فألقى بنفسه القلقة في أحضان « الأفيون » لعله يجد فيه

الشفاء والراحة . استمع إليه يقول في خطابه إلى صديقه
 الفيلسوف « جاك ماري تان » : « إن الأفيون ليحملنا إلى نهر الموتى ،
 إنه ينسخنا ويحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة ، ويجعل
 من جسدنا ليلاً تنزاحم فيه النجوم كأنها النمل ، ولكن سعادتنا
 هي سعادة في مرآة ، نغدو فيها من رؤوسنا إلى أقدامنا محض
 أكذوبة وإذا نحن كالمومياء : تقف آلة الأجسام وتأبى
 الأعضاء أن تطيع ، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس وما نعود نشعر
 ببرودة أو حرارة . لقد كان مصورو نابلي يزينون حيطان
 المساكين بما يسمونه « خدعة العين » . إن الأفيون ليس إلا
 مصوراً طريقته « خدعة الروح » . إنه يزين حيطان الحجر
 التي أدخن فيها بتصاوير تلذلي وتريح نفسى . إن الأفيون هو
 طارد الحيرة والقلق . إن الأفيون يشبه « الدين » بالقدر
 الذى يشبه فيه « المشعوذ » « المسيح ! » .. الخ . الخ . وأشرف
 « كوكتو » أخيراً على الدمار ، إلى أن ألقى بنفسه فى أحضان
 الدين . هناك أمل الأخير أنا أيضاً .. إذا اعتقدت أن الأوروبي

المفكر الذى شب على هذه المدنية يستطيع أن يعود إلى
الآيمان الحقيقى فى الوقت المناسب . إلى أن قرأت هذه الرسالة
المتبادلة بين « كوكتو » و « ماريتان » . فخامرنى الشك . إنها
رسائل على غاية ما تكون البراعة فى الأسلوب واتقاد الذكاء ،
ولكنها ليست أكثر من « قطع أدبية » . آه ، إنهم يكتبون
« أدبا » هؤلاء الناس حتى يوم يوهموننا أن المسألة مسألة
حياة أو موت . . . إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية
وبين عبقرية الشرق الروحية ، كالفرق بين « المشعوذ »
و « المسيح » ! خذ هذين الكتبيين اقرأهما واخبرنى هل تصدق
أن هذين الرجلين يعتقدان حقاً بالسما وما فيها من جنة
ونار ، اعتقاد ذلك المسلم الذى قلت لى الآن إنه ألقى البلع
من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ، واعتقاد أولئك
الشهداء من المسيحيين الغابرين ! إنى أفهم ان يتكلم هؤلاء
الشعراء الأوريون عن الدين والمسيح كلاما كله إعجاب خالص .
إنى أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان ولكن الذى أريد

ليس مجرد الاعجاب ، كما نفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء
الفن أو الأدب أو الفكر . لست أريد الاعجاب الناشئ عن
الاتما المفكرة وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ،
إنما أريد الايمان ، إيمان القلب ، الايمان الاعمى بأن المسيح في
السماء وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء . وان الجنة هي الجنة
كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى للساكنين
بالروح لأن لهم ملكوت السموات ! طوبى للأنقياء القلب
لأنهم يعاينون الله ! » .

آه يا صديقي ، يا أخى . إن أوروبا كلها الآن ليست
إلا رجلا مفكراً قلقاً حائراً يتعاطى الأفيون . إن « جان
كوكتو » هو كل (أوروبا) فى أزمتها الحاضرة . انتهت
أوروبا ، ولا شئ من داخلها يستطيع إنقاذها ، لأن كل شئ
إلى (عقليتها) هذه . تحوله إلى أدب واسلوب وزيف
وكذب . إنما الانقاذ من الخارج ، إنما النجاة فى الفضاء . إلى
هناك .. إلى الشرق .. قم معى .. إلى الشرق . افتح هذه النافذة ..

دع الهواء يدخل، إخلع غنى هذه الأردية الثقيلة . هذه السحب
الكثيفة تحجب غنى...

وامتلاً فم الروسي برغوة وزبد . ووضع يده على عنقه
يمزق قميصه كأنما هو يخنق . واصفر وجه محسن . ولم يبد
حراكا .. ثم تنبه قليلا من ذهوله ، فصاح صيحة مدوية ،
وأمرع إلى الباب يطلب النجدة ..

الفصل العشرون

اعتكف محسن بضعة أيام . علم خلالها أن صحة إيفانوفتش غاية في السوء . وجاءه صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه . ففتح له منفزعا :

— ما الخبر ؟

— صديقك الروسى ...

— مات ؟

— لم يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس ..

— وكيف حاله ؟

— لست أدرى ، هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه مريض بذات الرئة . كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر ذلك اليوم عند ما صحت مستنجداً ؟ لقد أغمى عليه أيضاً فى المساء وكان فى حالة احتضار حقيقية فاستدعينا له القسيس . ولكنه

مافتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح فيه وفيها بصوت خائر
لكنه ثائر : « ابعدوا عني هذا السكير بوجناته الموردة ! » .
وتصور عندئذ أى حرج وقعنا كلنا فيه ! .. على أى حال ،
قد بلغتك يا مسيو محسن ، ولك أن تذهب إليه إذا شئت ،
أو لاتذهب ..

وخرج صاحب النزل ، تاركا الفتى فى مكانه مطرقا
مفكراً . ولم يجد محسن بدا من الذهاب إلى إيفان على الفور ،
فقام ومضى إلى حجرته ، فوجده فى فراشه يتأمل أشعة الشمس
الداخلية من النافذة . وتنبه الروسى لحركة دخول محسن ،
فوجه بصره إليه ، وأشار له بعين باسمة إلى شعاع ذهبى انعكس
على الفراش :

— ما أجمل الشمس اليوم !

— نعم ...

قالها الفتى فى غير اكتراث وهو يتأمل وجه الرجل
الشاحب ، وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج بهذا

الشعاع فوق سرير ه . و ساد صمت . قطعه المريض بشبه همس :
— آه . النور . . النور يشرق من بلاد الشمس ، ليغرب
في بلاد الغرب !

ثم التفت إلى محسن وقال له في صوت متداع :
— اقرب يا صديقي ، وأنهضني قليلا . . فاني سئمت
طول الرقاد ! . .

فتردد الفتى خوفا عليه :
— إني أخشى . .
— لا تخش شيئاً . ضعني بجوار النافذة . أعنني على
الجلوس حيث يغمرني نور الشمس .

فلم ير محسن بداً من تلبية رغبته . فساعده على القيام
ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي حيث وضعه عليه وضعاً .
فقال الروسي وهو يستنشيق الهواء بما بقي له من رئتین :
— شكراً لك . . . أيها . . . الصديق .

ثم أمسك بيد محسن بين يديه ونظر إليه طويلاً وقال :

— أتعاهدني ؟

— على ماذا ؟

— أن نذهب معاً إلى .. الشرق ؟

فتردد الفتى قليلاً ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي :

— نعم ، عندما تسترد كل صحتك .

— إني أشعر اليوم أنني قد شفيت ، ان صحتي اليوم تسمح

لي أن أسافر ، اليوم بالذات . اسمع : ان لدى في هذا الصندوق

مبلغاً من المال ادخرته يكفي نفقات السفر ، وسأخرج اليوم

أبحث عن مشتر لهذه الكتب وهذه الأمتعة .. لست في

حاجة إلى كتب بعد اليوم ، إنما أنا في حاجة إلى .. إلى هواء

وفضاء .. وصفاء ..

وخشى محسن أن تنمو الفكرة في رأس هذا المريض ،

فتركب حماقة تسيء إلى صحته . فلم يبد تحمساً لما قال .. ثم

أراد أن يثنيه عن عزمه فقال :

— أرى أنك تقسو في الحكم على الغرب يامسيو ايفان .

مهما يكن من أمر ، فان اوروبا قد وصلت بالعلم البشرى إلى
 قمم لم يصل إليها .

فلفظ الرجل ضحكة سخرية :

— من قال لك ذلك ؟ أتعرف ما هو العلم أيها الفتى ؟
 ان العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفى » . وان
 اوروبا حتى اليوم طفلة تعبث تحت أقدام ذلك « العلم الخفى »
 الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به حقيقة إلى
 قمم . أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها . إلا أن طاقة
 الآلة المفكرة محدودة ، وان كل وسائل العلم الظاهر هى
 أعضاؤها وحواسنا الظاهرة وتلك ليس لها من الدقة ما يقتضى
 غير الظواهر التافهة من ظواهر الطبيعة والكون ، مهما تعاونها
 الآلات والعدسات .. كل هذا العلم الحديث الذى يبهرك
 ليس فى حقيقته غير « طريقة » و « أسلوب » ... نعم إن
 الجديد حقاً فى العلم الأوربى الحديث هو « أسلوب » التفكير
 المنتظم و « طرائق » البحث العقلى المرتب . أما أكثر من ذلك

فلا . وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة
بحواسنا وصولاً إلى قمم المعرفة البشرية فتلك هي السخرية
الكبرى . إن قمم المعرفة البشرية هي في مجاهل ذلك « العلم
الخفي » الذي لم يدخل قط عقل أوروبا . لأن وسائلها كما قلت
لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية . ولا أقسو عليها
إذا استعملت كلمة « السطحية » لأنها هي الحقيقة . إن عين
العلم الأوروبي لا تقع دائماً إلا على سطح الأشياء ، ككل عين .
إنها مدنية لا تدرك ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها
ومنطق عقلها ، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس ، وإني أصر
على أن هذه المدنية الكبيرة إن هي إلا « مدنية ناقصة » لأنها
لا تعرف الحياة إلا في « عالم واحد » . أريد أن أهرب إلى
البلاد التي تعيش في « عالمين » تلك البلاد التي ارتفعت فيها
المعرفة البشرية إلى قمم « العلمين » .

وسكت الرجل قليلاً ، ولمح محسن التعب على وجهه

فقال له :

— لا تتكلم كثيراً . أرجو منك ذلك . حسبنا ما حصل
في المرة السابقة ..

— لن أتكلم ، كفى كلاماً . ولكني سأفعل ، إلى العمل ...
ثم تحامل ونهض قليلاً مسـتنداً إلى الحائط فأسرع
إليه محسن :

— إلى أين ؟

— أرتدى ثيابي ، لأخرج فأبيع هذه الكتب وأتهيأ
للسفر ...

— ليس الآن ، ليس الآن .. إنك متعب .

— دعني ، أيها الشاب ، سـنذهب إلى الشرق ، أريد أن
أرى جبل الزيتون وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات
وماء زمزم وماء ..

— وتترك هذه البلاد .. وهذه الحضارة .. وتترك

« بيتهوفن » . آه يا مـسيو إيفان ! إنك تستطيع أن تقول كل
شيء عن الغرب فأسمع لك . ولكن « بيتهوفن » ها هو ذا نبي

حقيقي . ها هو ذا رسول للرحمة والسلام خليق أن يرفع مجد
الغرب أبد الآبدين .. وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب ..
فالتفت الروسى إلى محسن قائلاً فى قوة :

— بيتهوفن ! بيتهوفن . نعم بيتهوفن ، وهاندل ، وموزار ،
وهایدن ، وجان سباستيان باخ ، وميكل آنج ، ورفاييل ،
ورمبرانت ، وپاسكال ، وسان توماس وكوپرنيك ، وجاليليه
ودانتى .. الخ الخ كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات فى
حديقة المسيحية الغناء !

ثم وضع يده على كتف محسن المطرق الساهم :
— هلم إلى المنبع ! إلى المنبع ؟ إلى هناك .. إلى هناك .
ثم ترك الفتى فى اطراقه ، وتحامل متكئاً على الحائط يبحث
عن حذائه وسترته .. ومرت فى رأس محسن خواطر وبدت
له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسى :
— ألم تر الشرق قط من قبل ؟ !

فأجاب الرجل وهو يضع حذائه فى احدى قدميه :

— لم أراه قط إلا في أحلامي .. ولكنى لن أموت قبل
أن أراه . . .

فأطرق محسن مرة أخرى ، وهم أخيراً أن يرفع رأسه
ليقول لايفان :

— مهلا ، مهلا أيها الصديق ! أن ذلك المنبع الذى تريد
أن تراه ، وتلك الاثمار التى تريد أن تشرب منها قد تسممت
كلها . ان « الفتاة الشقراء » يوم حقنت فخذها بالمورفين السام
لم تترك أبويها سالمين . لقد قضى الأمر ، ولم يعد هنالك ينبع
صاف . فان الزهد قد ذهب كذلك من الشرق . وان رجال
الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات وقبض
المرتبات وتورد الوجبات من النعم والمتع . وأن ثياب الشرق
الجميلة النبيلة هى اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية
يشير منظره الضحك كما يشير منظر قردة اختطفتم ملابس
سائحين من مختلفي الأجناس وصعدت بها فوق شجرة ترتديها
وتقلد حركات أصحابها . وان التعليم العام للقراءة والكتابة

وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الافكار الأوروبية
 قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة يؤمن بها الشرقيون
 ايمانهم بل أكثر من ايمانهم بمبادئ الاديان وأنه لمن السهل
 أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد ولكن ليس من السهل
 أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هي عجلة «إبليس» التي يقود بها
 الانسانية إلى الدمار... أو أن التعليم العام لرموز الكتابة
 نوع من الهراء وانك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس
 الشرق عظمة «السماء». ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة
 «العلم الأوروبي الحديث» ، وانه لمن اليسير أن تسفه عند
 الشرقي الان «رسالة» الانبياء ، ولا يمكن أن تسفه لديه «رسالة»
 القوة المادية الحديثة ! بل من العجيب أن هذه الأفكار
 والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم ثابتة ثبوت الآيات المنزلة
 قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها ، وهي ما تزال
 حافظة عندنا كل قوتها . وأن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد
 بعض هذه الأفكار ونرى ضوء لهبه ولكن الصوت لا يصل

إلى آذاننا لا لبعد المسافة بل لأن آذاننا لا تسمع وقلوبنا لا تعى. لقد كانت «الحقنة» شديدة الفعل والأثر. نعم، ولا أحد يدرى هل أوروبا حققت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم نافع. سرى وما زال يسرى فى شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية فى النفوس. فشبان الشرق اليوم عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة والبطولة لم يتجهوا شطر «غاندى» ولكنهم اتجهوا بعيون كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسوليني» ويوم أرادوا أن يجعلوا للتششف والجلد والخشونة لباسا لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطا من القطن يصنعونه بأيديهم. لكنهم ارتدوا القمصان الأوروبية ذات الألوان ! إذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا فى قلوب الشرقيين !

نعم ، اليوم لا يوجد شرق !! إنما هى غابة على أشجارها قردة تلبس زى الغرب على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا ادراك .

لم يجرؤ محسن أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه الروسي .
فقد أدرك أن هذا الرجل الذى لم يستطع شئ فى الغرب أن
يشفى نفسه القلقة الحائرة ، قد وضع كل أمله فى الشرق . وقد
صنع للشرق فى رأسه صوراً عظيمةً هى كل أمله الباقى ، وان
كشف الحقيقة لعينه الآن أفضع طعنة يقتل بها هذا المسكين .
فتركه فى خيالاته . ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع
صاحبه ، فالفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه الى الحائط
وفى إحدى قدميه الحذاء . فأخذه روع لمراه وأسرع إليه :

— ماذا بك؟ مسيو ايفان؟ ماذا بك !

فقال الرجل فى صوت كالخشرجة :

— فات الأوان !

— أى أوان ؟

— اذهب أنت وحدك... الى... هناك...

— أأستدعى لك الطبيب ، يامسيو ايفان؟ أأطلب لك...

— لا.. لا تفعل شيئاً .. انى .. أعرف نفسى ..

ومال رأسه وانطفأ النور الباقي من عينيه لكنه تحامل
وقال في صوت لا يكاد يسمع :
— اذهب أنت يا صديقي ... الى هناك ... الى النبع ...
واحمل ذكرى وحدها معك ... وداعا ...



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0071190848

S PADE



12. 5. 10. 10

12. 5. 10. 10

LOOK FOR BARCODE



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

